محمد كامل الخطيب



أجمل السنوات

رواية - ١

أجمل السنوات

حقوق النشر محفوظة للمؤلف

- محمد كامل الخطيب.
- أجمل السنوات.
- رواية
- الطبعة الأولى: دمشق ١٩٩٩
- منشورات : ٢١

محمد كامل الخطيب

أجمل السنوات

روايـــة

«ها أنذا أشرع في الحديث عن التحولات التي عرت كائنات، فبدلت أجسادها أجساد كائنات أخرى، أضرع إليكم أيتــها الآلهــة [وأنتم مبدعو هذه التحولات وغيرهـــا] أن تعينوني في تحقيق مقصـــدي بومضـــات في إلهامكم لي، أن أغـــزل في قصيـــدي هـــذا ــ إقرأ: روايتي ــ خيطـــاً مـــن الشـــعر لا ينقطع، يجمع بين طرفيه أحداث الكون منـــذ بدء الخليقة حتى عصرنا القائم»

مسخ الكائنات. أوفيد

إذا وقعت واقعة عظيمة لا تضحـــك، ولا تبك، ولكن فكّر

سبينوزا

إني أتذكر:

أتذكر يوسف، وأتساءل الآن كما تساءلت منذ فترة طويلة عن هذه القوة القاهرة، هذه القوة الجبرية التي تدفع الناس للسير في طريق ليس طريقهم، وللقيام بتصرفات عكس ما يريدون القيام به، بل وقول عكس ما يعتقدون. لينتهوا إلى مصير غريب، مصير ما أرادوه وما تخيلوه، بل وما تخيله، أو أراده أحد لهم.

كثيراً ما حدث أن ذهبت إلى لقاء يوسف وفي نيتي أن أنهي علاقتي معه، كنت أهيء في نفسي حواراً متقناً على طريقة كتّاب السيناريوهات السينمائية، على أن ينتهي الحوار بقولي:

ـ لست عاتبة عليك يا يوسف... أحببتك بصدق.. وأعتقد أنك كنت صادقاً معي، لسنا صالحين لبعضنا بعضاً .. علاقتنا أخفقت .. وداعاً.. أرجوك لا تتصل بي بعد اليوم.

أو:

ـ إني أحتقرك.. أنت خنتني وبعتني، اغرب عن وجهي أيها الانتهازي المخادع.

أو، وبعد أن ننهي حديثنا الذي سأجعله يبدو حيادياً، أو حديث أصدقاء قدامى:

ـ لا تتصل بي بعد اليوم.. سر في طريقك، وأنا سأسير في طريقي. ليسر كل في طريقه.

في كل لقاء خلال العامين الأخيرين من علاقتي بيوسف، كنت وأنا في طريقي إلى لقائه، أو، وأنا أنتظره في بيتي، أتخذ مثل هذه القرارات، وأعد مثل هذه السيناريوهات، ولكنني أفاجئ، عندما نفترق، أنني لم أقل ما انتويت قوله، بل وأن الحديث جرى — أكثر الأحيان — سلسا لطيفا، كما يحدث بين عاشقين يعرفان بعضهما، ويثقان بعلاقتهما، وليس هناك من مشكلة قائمة بينهما، أو ليس هناك من هوة تتسع وتتعمق في كل لقاء. كنا نتحدث في كل شيء تقريباً، في العمل، في السياسة، في أحوال البلاد والأهل والأصدقاء، كنا نتكلم عن الطقس والناس والسينما، نأكل ونشرب، لكننا، كنا، أكثر الأحيان، وخلا بعض التلميحات، نبتعد عن المشكلة القائمة بيننا، ونرفض النظر إلى الفجوة التي تتكون ضمن أحاديثنا ولقاءاتنا، نرفض التحديق في الهوة التي نحفرها في كل لقاء، وكأن كلاً منا كان يهرب من الآخر، أو يهرب من المشكلة، ليتيح لنفسه حرية التفكير والحركة، أو اتخاذ القرار المنفرد.

كأن كلاً منا كان يريد من الآخر أن يظهر بكامله حتى يسهل عليه اصطياده، بينما المشكلة تنمو في صمت، والهوة تزداد عمقاً واتساعاً، ونحن نراها ولا نراها، أو ندعي أننا لا نراها، وحتى عندما حدث الانفجار بيننا وتحولت علاقتنا إلى جحيم المهاترات، فإننا لم نر الهوة.

لكن أكان يجب أن يموت يوسف، وأن يموت معه ثلاثة أشخاص، وأن يعطب الرابع حتى أعرف عمق الهوة التي كانت بيني وبينك يا يوسف؟!

إنني أتذكر:

أتذكر، أتذكر.. فأنا امرأة مثقلة بالذكريات، امرأة مثقلة بالأسى، أحس وكأن الذكريات تتزاحم في رأسي، ولا أعرف أيها أركز عليه، أيها أتأمله، وأنا أحاول أن أكون هادئة، متأملة فيما حدث، ترى هل أستطيع أن أتذكر، أن أعيد استحضار الأحداث كما وقعت، ثم فهمها وكأنها تجربة امرأة أخرى، ربما كان الأمر صعباً، ولكنني سأحاوله، سأحاول تنظيم ذكرياتي، وفهم حياتي، بالتأمل، بالكتابة، بالتذكر.

إنني أتذكر:

أتذكر وأفكر، أفكر بيوسف عبد النور المستلقي في مدفن عائلته في حمص منذ أسبوع، ونجوى حمدان المستلقية مشلولة أبد الدهر في مستشفاها في دمشق، أتذكر وأكاد أرتجف لمجرد تصور نفسي مكان نجوى حمدان. لا أتمنى ذلك لأحد من الناس. ليس الشلل فقط، بل فقدت نجوى حمدان أمها وأباها ويوسف. ذهب الذين تحبهم وبقيت وحيدة، كشاهدة أبدية على هول الحادث الفاجع، لكن هذا كلام عام وتعاطف، قد يكون خارجياً، ولأكن

شجاعة، ولأسأل أعماقي، لأدخل في لاوعيي، كما طلب مني مازن عبد الحميد، وأعرف حقيقة:

هل كان لدي رغبة داخلية بالانتقام؟ هل أنا مسرورة في أعماقي لما حدث؟ وهل شدة حزني هي مقلوب فرحي، هي طريقتي في الانتقام والتشفي؟!

أتمنى ألا تكون نفسي دنيئة إلى هذا الحد، لكن من يعرف نفسه؟!

لا أعرف.. لا أعرف، ولكنني سأخاطر مع نفسي وأدخل أعماقها لأعرف الحقيقة، حقيقة ما حدث وحقيقة نفسي، وأنا على استعداد لكل شيء، لكل معرفة، ولكل حقيقة أستطيع الوصول إليها، فأنا أعرف أي مستنقع وأي سماء يكمنان في أعماق الإنسان.

لا أعرف شيئا عن نجوى حمدان إلا ما كان يحدثني به يوسف عنها، في البداية قال لي: إنها امرأة جميلة لا تهتم إلا بعشاقها وطموحها ومصالحها المالية في مستشفاها، وكان يقول لي عنها إنها لا مبالية من الناحية الأخلاقية، بل كان يستنكر سلوكها وأحيانا يعدد لي علاقاتها، وكثيرا ما حدثني عن تحرشاتها به، ثم، وبعد فترة تغير حديثه عنها، وصار أقرب إلى تناسي ما كان يحكيه لي عنها، وصار يصفها بالجدية والتفوق والشهامة، وعندما ذكرته بأحاديثه السابقة قال لي بأنها أقوال، وأنه رددها كغيره، كما سمعها، وأنه صدقها، وأنه مقتنع الآن بكذبها، فالناس — كما قال وقتها — لا تفهم المرأة العاملة المتحررة، وخاصة إذا

كانت متفوقة وفي مركز نجوى حمدان وثروتها، فهي ــ كما قال ــ أطيب مما يظنه الناس، وأكثر استقامة، كل مـــا في الأمـــر أن علاقتها الزوجية سيئة، وأنها منفصلة عن زوجها مـــع ولديـــها بالتراضي، ودون إعلان الطلاق، مع أن واقع الحال أنها مطلقـــة، وأن هناك أسبابا، لا يعرفها، تمنعها من اتخاذ الإجراءات القانونيـــة للطلاق، وفي كل الأحوال ــ كما قال ــ هي زوجة وأم مثالية، أو امرأة مثالية لو كانت تجد الرجل المناسب، وعندما لمحت له إلى أنني أستنتج من حديثه أنه يستلطفها اتهمني بسوء الظن والغـــيرة، بل وضعف الشخصية؛ وعندما سألته: سوء الظن بماذا؟!

أجاب محتدا: إنه سوء الظن بي وبنجوى.. وبالعالم

ربما أعرف الآن لماذا ثار من ملاحظة عادية، أمـــا مـــا لا أعرفه، فهو لماذا غيرت أنا موضوع الحديث آنذاك؟! هل بـــدأت من يومها أخشى مواجهة الحقيقة؟!

ليس لدي أي شيء ضد نجوى حمدان، فأنا لا أعرفها إلا من أحاديث يوسف عنها. ربما كانت لديها مشـــكلتها، أو قصتـــها الخاصة، ربما كان لوجهة نظرها ــ التي لا أعرفها ــ بعض مـــن الوجاهة، لكن المرأة، الدكتورة، مديرة المستشفى التي رسمـــها لي يوسف تحيرني بعد أن عرفت كل تفاصيل القصة، وبعد أن حدث ما حدث، بعد أن حدثت الفاجعة التي أريد من كـــل قلـــبي أن أفهمها على حقيقتها. تحيرني نجوى حمدان، تحيرني إمرأة متزوجـــة تبدل عشاقها، ثم تستقر على زميل يكاد يكون متزوجا من فتـــاة، فتاة عمر علاقته بها عشر سنوات، ثم تشـــاركه في المستشـــفى،

وتعيش معه علاقة زواج غير معلن، في الوقت الذي تعيش فيه هي طلاقا غير معلن، تحيرني نجوى حمدان. مثلما يحيرني يوسف، بل ومثلما تحيرني نفسي.

لكن آه.. إنني متعبة ولن أستمر في الكتابة.

إني أتذكر:

أتذكر وأحاول أن أفهم ما جرى، أحاول أن أفهم كيف يتكون مصير الإنسان، وكيف يندفع المرء إليه، ليصل في النهاية إلى الموت، أفكر كيف تبدأ قصة ما بالحب، وتنتهي أو تكتمل بالموت، إني أتذكر، أتذكر حادث السيارة الفاجع، وأحاول أن أفهمه، أحاول أن أفهم كيف يموت أربعة أشخاص ويعطب خامس في حادث سيارة، لكني لست مهندسة ميكانيكية، ولست خبيرة حوادث طرق، بل ولست أستطيع حتى قيادة سيارة. إنني مشاهدة لوقائع الحياة، وسلوك البشر، مشاهدة ومكتوية، مشاهدة أحاول أن أكون موضوعية، نزيهة وموضوعية إن لم أستطع أن أكون حيادية. إنني أكتب لأقرأ، لأفهم نفسي والفاجعة.

إنني أكتب عن البشر، فلا معدى لي من أن أفهم الأحداث، أو الحادث الفاجع فهما دلاليا، مجازيا، لا معدى لي من أن أقرأ الفاجعة قراءة رمزية، فالحياة غابة رموز، مثلما هي أفق احتمالات. الحياة مجاز مثلما هي واقع، كما يقول مازن عبد الحميد، فلأعذر نفسي إذا رأيت في حادث سير فاجع أودى بحياة

أربعة أشخاص، وربما خمسة، أكثر من مجرد خطأ فني أو ميكانيكي عارض، لكنه قاتل.

فمن أين أبدأ، من أين تبدأ القصة، من أين تبدأ الكارثة؟! وهل من كارثة أكبر من موت أربعة أشخاص، وليكونوا من يكونون وانعطاب الخامس، وهم عائدون من عطلة نهاية الأسبوع في منتجعهم البحري في طرطوس؟! أو على أي طريق سيارات آخر في هذا العالم المتسع الأرجاء، والكثير الطرقات والسيارات والبشر والفواجع!!

إني أفكر:

آلاف الناس يتقاطعون في الشوارع كل لحظة، آلاف الناس يسافرون في السيارات والقطارات والطائرات كل ساعة، آلاف الناس نراهم كل يوم، نرى الشخص يسير في الطريق، فهل نعرف إلى أي مصير يذهب؟!

لكل شخص قصة، لكل شخص مصير، ترى هل نرى من الناس إلا الظواهر والمظاهر والحوادث الخارجية؟! هل نفهم من الأحداث إلا سطحها؟ كيف نفهم لقاء الناس وفراقهم، ولادتهم وموتهم، كيف نفهم تغيرهم وتبدلهم، كيف نفهم حياتهم ووجودهم؟

وما معنى كل ذلك، إن كان هناك معنى؟!

إني أتذكر:

أتذكر يوسف عبد النور الذي مات ولا يستطيع أن يـــروي القصة كما حدثت معه، لا يستطيع أن يتكلم عن العطل الفـــني وهو السائق الماهر، ولكن هل كانت الفاجعة مجرد عطل فـــني، مجرد حادث سيارة عرضي، أم أن للحادث محتوى ودلالة؟

إني أتذكر، وأحاول أن أفهم، أحاول أن أكون نزيهة.

أحاول أن أضع نفسي مكان يوسف عبد النور، وأن أحكي قصته كما لو كان هو الذي يحكيها. لن أروي الحكاية بضمـــير الغائب، سأرويها بضمير المتكلم، فربما يساعدني هذا على تقمص شخصية يوسف وحكايته، أو وجهة نظره أكثر،خصوصا وأنـــي أكاد أعرف ـــ أو كنت أعرف، أو أدعي أنني أعرف ـــ كـــل شيء تقريبا عنه، وهل من الغريب أن أعرف عن يوســف كـــل شيء تقريبا بعد معايشة استمرت عشر سنوات؟! خمـــس منـــها كانت جميلة؟!

سأتخيل أن يوسف يكتب يتذكر، يتذكر مثلي الآن، يتذكـــر ليفهم، يتذكر ويكتب؛ وسأكتب حسب أسلوبه الذي أعرفـــه في الكلام معي:

«أنت يا رويدا الرفاعي تعتقدين أنني خنتك، وأنـــي مجـــرد انتهازي يتسلق درج نجوى حمدان، شخصية عادية من شخصيات هذا الزمن، كما ستقولين، منافق يستغل وسامته ولباقته ومهارتـــه في الطب،وفي ظروف مناسبة، ومرحلة تفتح الطريق لمثل هـــــذه القصص التي تتكرر هذه الأيام. أعرف أنك تفكرين هكذا، ربمـــا

ستضيفين: لم تخني أنا فقط، بل خنت كل من يعرفك، خنت نفسك أولا وآخرا. ليس أسهل من الكلام بهذه الطريقة، لن أقول لك هذه طريقة عفى عليها الزمن، بل سأقول لك بصراحة: هذه طريقة سطحية في فهم الأمور والحكم على البشر، على الزمن والبشر والعواطف، طريقة سطحية في فهمي وفهم نجوى حمدان، وفي فهم هذه الحياة بكاملها. ربما عملك الصحفي السريع أثر في طريقة فهمك للحياة وأحداثها. تعرفين أنني أحبك، أو كنت أحبك، أو أحببتك ذات يوم. اختاري العبارة التي تشائين، ولكن ثقي أنني كنت جادا معك ومخلصا لك. لكني أعترف أنني لم أستطع تغييرك، ولا تغيير نفسي، ومن ذا الذي ــ يا عز ــ لا يتغير؟! تتذكرين هذا المقطع الشعري الذي صارت تردده أختي ديمة معي ومعك مؤخرا.

لماذا لا نصدقه الآن، وبعد أن حدث ما حدث بيننا؟!

أنا لم أفكر يوما في خيانتك، ولكني ربما خنتك حسب مفهومك. أعرف حساسيتك تجاه هذه الكلمة، وكم تكرهينها إلى درجة ترفضين النطق بها، لكنك واعية تفكرين، بل، وتؤمنين بها في أعماقك. تؤمنين أنني فعلتها. مرة أخرى أقول لك هذا فهم سطحي للأمور. لنحذف كلمة «الخيانة» من قاموسنا إذا شئت ولنستخدم الكلمة التي تفضلينها أنت: التغيير. إنها كلمة مهذبة مواربة حسب طريقتك في الفهم والإيحاء. أنا تغيرت، نعم تغيرت، تغيرت ببساطة لأن ظروفي تغيرت، ولأنك لم تساعديني، ولم تقدمي لي أي حماية، حتى عندما طلبتها منك. كنت تريني

أسير في طريق غير طريقك، وتكتفين بعبارة واحدة تكشف كبرياءك أكثر مما تحاول مساعدتي «إنك تسير في طريق خاطئ يا يوسف» هذه كلمة يقولها لي رجل أصادفه في الشارع وليس رويدا الرفاعي حبيبتي وزوجتي أمام نفسي وأمام الناس. «تسير في طريق خاطئ» تقولينها ببساطة وكأنك تقولين: «اليوم حر» أو«هذه غيمة عابرة». أكثر من مرة حدثتك عن مواعيدي مع نجوى حمدان خارج المستشفى، وكنت أسألك هل أذهب فتردين «كما تشاء». أكثر من مرة اتصلت بها من بيتك وأنت تظهرين اللامبالاة. كنت تصمتين فقط، وكأنك تحدقين في الفراغ.

كان يجب أن تردعيني ولو مرة، أن تشتميني، صحيح أنك انفجرت بعد ذلك أكثر من مرة، لكن بعد أن سار القطار على خطه الحديدي الإجباري وبدأ يغادر المحطة. كان القطار قد صار خارج المحطة، وأنت واقفة ترددين معزوفتك الباردة والسخيفة «هذا طريق خاطئ» أو «أنت حر إفعل ما تريد» كأنك كنت تريدين مني أن أسير في طريق خاطئ، أو في أي طريق آخر، لتسيري أنت في طريقك الخاص بك. مرارا أتيت إليك في البيت ولاحظت وجود مازن عبد الحميد وآخرين، مع أن مازن صديقي، لاحظت استلطافه لك، واستلطافك له، بل وخرجتما أكثر من مرة وحدكما للعشاء خارج البيت، وكنتما تعرفان أني سأذهب إلى بيت نجوى حمدان، وسأنام عندها في بلودان، وكنا ما نزال نعتبر نفسينا، أو يعتبرنا أصدقاؤنا حبيبين، كنت ما تزالين تقولين لي: أنت كل شيء بالنسبة لي في هذا العالم، وكنت أقول

لك القول نفسه، وكنا نظن نفسينا صادقين، لكننا كنا كاذبين، بل وجبانين، وغير قادرين على الاعتراف، أو رؤية أننا نتغير وأننا تغيرنا، وأنا كلا منا يسير في طريق آخر، وأن كلا منا يريد أن يحرر الآخر من نفسه، لكنه يريد لهذا الآخر أن يكون البادئ في الإعلان حتى يحمله المسؤولية، وحتى يبرئ ضميره. لقد تواطأنا ولعبنا، تحت غطاء عبارات الحب والمودة، تحت غطاء التصرفات المتحررة، الواعية، الواثقة، لعبة حقيرة، لقد تواطأنا أنت وأنا على الكذب، على أنفسنا وعلى بعضنا، وعلى الناس، صحيح أنك كنت تدعينني لأذهب معكما، أنت ومازن عبد الحميد، ولكني كنت أفهم أنها دعوة غير جدية، وكنتما تخرجان أمامي، فأذهب أنا إلى نجوى حمدان، ولكن هل فعلت مثلك، هل خرجت مع نجوى بحضورك؟ هل أحرجتك أو جرحت كبرياءك علنا وبحضورك، كما فعلت أنت معي عندما كنت تخرجين مع مازن، بل ومع غير مازن، أنا لا أتهمك، لكني أعرف كل شيء وأنت حرة، أنت تذكرين...

يا إلهي.. لا أستطيع متابعة الكتابة، فلقد فعلت كل ذلك وأكثر.. وأكثر.. لا أستطيع مواجهة نفسي أكثر. يا رب ارحم.

يا رب ارحم: أحب هذه العبارة التي سمعتها من قسيس كان يصلي على جثمان أم يوسف، وذهبت إلى الكنيسة لحضور الصلاة عليها.

الآن أتذكر ذلك وأقول: يا رب ارحم.

إني أتذكر:

أتذكر، وعامدة أتذكر، أتذكر لأكتشف نفسي، لأعرف نفسي، فقد شعرت منذ سمعت بخبر فاجعة السيارة أني ضائعة وأني أحد المشاركين، ولا أدري كيف ولماذا؟! أحس أحيانا أني متهمة، وإني مثل يوسف كنت أقود علاقتنا نحو الهاوية، الهاوية التي ابتلعت السيارة ومن فيها.

أتذكر أني قلت مرة ليوسف ونحن نعبر سوق الحميدية باتجاه مقهى النوفرة؛ وعندما مررنا أمام باب الجامع الأموي:

علاقتي بك يا يوسف هذه الأيام تذكرني بهذا السوق وفي نهايته الجامع، ففي السوق يكذب الناس ويغشون ويسرقون، وبين وقت وآخر، أو آخر الأمر، يدخلون إلى الجامع يتوضأون ويصلون، ينظفون أجسادهم وأرواحهم. أنت مصر على العلاقة معي على الرغم من كل ما حدث بيننا، لأنني بالنسبة لك الشيء الوحيد البريء والنقي الذي بقي منك، أو لك. أعرف أنك تحبني، ولكنك ملوث بعلاقتك بنجوى ومستشفاها. مثلما أنا أصبحت ملوثة بك، وبنجوى حمدان، أنت تريدني بين لحظة وأخرى أن أعيدك إلى نفسك، تريد أن تثبت لنفسك أنك ما زلت الشاب العاشق النقي، البريء الذي يذهب مع صديقته ليفرجها على دمشق القديمة، يأكلان في مطعم أبي العز، ويشربان القهوة في مقهى النوفرة، لكنك ما إن تتركني، الآن بعد النوفرة،

حتى تذهب إلى المستشفى، وفي الليل ستتعشى مع نجوى حمدان في الشيراتون، أو في فندق الشام..

لماذا كذبنا على أنفسنا يا يوسف؟!

إني أتذكر أيضا:

أتذكر أن يوسف قال لي مرة:

أنت تدفعينني بقوة وتصميم نحو نجوى حمدان، أنت لا تبذلين أي جهد لإعادتي إليك، للحفاظ علي، لحماية علاقتنا، أتذكر وقتها أنني أجبته بحدة: إنني أتعامل مع رجال راشدين ولست مربية أطفال. قلت له أيضا: لا أحد يحمي أحدا إذا لم يحم الإنسان نفسه، فالإنسان يظهر معدنه الحقيقي عندما يتعرض للإغراء. أهداف الإنسان، في هذه الحياة، هي حقيقته، أتذكر كل ذلك، وأعترف الآن أنه ربما كان محقا، فأنا — في البداية على الأقل — لم أبذل أي جهد، على الرغم من أنني كنت ألاحظ وأعي كل شيء. ربما يوسف كان محقا، وربما كانت لدي رغبة دفينة ولا واعية في أن يقيم علاقة غرامية مع نجوى حمدان، علاقة غير متكافئة، فهي مالكة المستشفى، مستشفى أبيها، وهو يعمل عندها، لتهبط قيمته ومنزلته في نفسي، أستطيع الآن أن أعترف بهذا، على الرغم من أنني بقيت متعلقة بك يا يوسف ربما حفاظا على كبريائي، أتذكر يا يوسف يوم أريتك فيلم «عرض شائن» على الفيديو في بيتي؟ أتذكر، وأنت في العالم الآخر، أنك قلت لي: هل تقصدين أنني أبيعك لقاء مليون دولار... أبيعك لنجوى حمدان مقابل المستشفى؟! يومها فهمت يا يوسف لعبتي. أنكرت

أنا أنني أقصد ذلك، وقلت بأنني أريك الفلم لأنه جميل، لكنك فهمت تلميحي.. فأنت تفهم وتعرف طريقتي في الإيحاء. نعم أريتك الفلم عن قصد، والرسالة التي أردت إيصالها وصلتك، فالمحبون يفهمون رسائل بعضهم جيدا، أعرف أنه كان يجب أن أصرح، لا أن أختفي وراء فلم سينمائي، واليوم، وبعد أن فات الأوان ها أنذا أصرح بما كان يجب أن أصرح به:

نعم لقد بعتني يا يوسف لقاء ثمن، لقاء مستشفى وإمرأة وسيارة، لقاء انتقالك إلى طريقة أخرى في الحياة، وهذا كان شعوري منذ أول يوم ذهبت فيه مع نجوى حمدان إلى بلودان. لقد بعتني لقاء: التغيير، لكنك، وأنا حزينة لأجلك يا يوسف، حزينة أكثر مما تتصور، حزينة قدر ما أمطرت الدنيا مطرا، كما كنت تقول لي في بدء حبنا عندما تزعل مني: إنني زعلان منك يا رويدا قدر ما أمطرت السماء ماء، نعم بعتني يا يوسف، لكنني، ومرة أخرى، أنا حزينة لأجلك، أنت الذي دفع الثمن الأغلى، لا أنا، فأنا لم يكن لدي شيء غيرك لأدفعه في هذا الزمن، وقد دفعته لقاء لا مبالاتي وكبريائي، دفعته لنجوى حمدان، وللزمن العلصف الذي نعيش فيه، دفعته لك، لكنه كان ثمنا بخسا ما دفعت أنا، أنت دفعت حياتك يا يوسف، وما كنت أريد لهذا أن يحدث. ما كنت أريد لهذا أن يحدث.

الآن أفكر، أتساءل:

هل باعني يوسف، حقا أم أنه قد باع حياته، باع روحه للشيطان، كما في فاوست، هل باعني أنا حقا أم أنه باع أيضا

حلمنا الذي حلمنا به، يوسف، ديمة، أنا وأصدقاؤنا الأوائل، مازن عبد الحميد قال: يوسف باع طفولته وموهبته وشبابه.

إني أتساءل وأقول: ربما كنت متجنية عليك يا يوسف. يا رب ارحم، ارحمني ولا تؤاخذني، فأنا امرأة مفجوعة، مفجوعة بك يا يوسف. مفجوعة بنفسي أيضا.

ما كنت أظنك سيئا إلى هذا الحد، ما كنت أظن نفسي سيئة إلى هذه الدرجة.

إني أتذكر:

أتذكر تماما بدء الخلاف، أتذكر أنني كنت صامتة ولا مبالية، كبلهاء، على الرغم من أنني كنت أرى وألاحظ كل شيء، وكل تغير في علاقة يوسف بي، وفي علاقته بنجوى حمدان ومستشفاها. صامتة كنت، ولم أتكلم لأحد إلا لديمة عبد النور، أخت يوسف، وها ديمة قد ماتت، ساقها يوسف في دوامة اندفاعه الصاعد نحو الهاوية كما يذهب كثير من الأبرياء في قضايا لا علاقة لهم بها. ها ديمة قد ماتت حاملة معها أسرارنا وحكاياتنا، بل وحاملة معها الحقيقة، فهي وحدها ربما كانت تستطيع قول الأشياء كما حدثت. كنا متشابهتين كثيرا: ديمة وأنا، وهي التي عرفتني إلى يوسف على أمل أن تحدث بيننا علاقة، وهذا ما حدث. كانت تحب أخاها، وكانت تحبني، لكنها لم تكن مبهورة بأخيها، بل كانت تعرف نقائصه أكثر مني كما تعرف

محاسنه، فقد كانت أخته الكبرى، كان لديها قدرة أفتقدها أنا، وهي مجابهة الأمور وهي تحدث بل والتحدث فيها بصراحة، بدل التلميح بعد مضي زمن، كانت لديها القدرة على الهدوء في التصريح عندما تصرح. أما أنا فأنفجر عندما أصرح. كانت لديها القدرة على محاكمة الأمور بهدوء وروية، حتى بالنسبة لأمورها مع مازن، وأمور يوسف أخيها. أذكر الآن أنها قالت لي أكثر من مرة: إذا كنت تريدين أن أسمعك ما تريدين سماعه فأنا أستطيع ذلك، هذا سهل، لكن اسمعي مني الحقيقة:

إذا كنت تريدين أن ألوم يوسف، أن أوبخه، هذا سهل أيضا. اسمعي يوسف في ورطة مع نفسه ومع نحوى حمدان. اسمعي: الرجال إما حمقى، وإما أطفال. وتلك مصيبتنا، أو ربما تلك هي فرصتنا نحن النساء، تصرفي على هذا الأساس مع الرجال، ومع أخي. تعرفين أني أحبك، لكن تعلمي من تجربتي: في مسائل الحب ألقي الكبرياء والأوهام جانبا، لا أقول لك اتركي كرامتك ولكن فتشي عن مفهوم أعمق للكرامة، مفهوم أقل كبرياء وأكثر إنسانية، بل وواقعية. هناك فرق صغير، لكنه رفيع وحاد بين الكرامة والكبرياء، وعليك اكتشافه وإعادة اكتشافه في كل لحظة، في كل واقعة أو حديث أو إشارة. كوني صريحة مع نفسك، عندما تغارين قولي أنا غيرانة، وتصرفي وانفعلي كغيرانة، لا تكذبي على نفسك، ولا تمثلي أو تتظاهري باللامبالاة. أحيانا هناك لحظة حاسمة يجب أن تقال فيها كلمة، كلمة قد تكون جميلة، وقد تكون رديئة وحتى بذيئة، فتنقلب

الأمور إلى النقاء والصلاح، وإذا لم تقل هذه الكلمة السيئة إياهـا ضاع كل شيء. اسمعي يوسف في طريق نجوى حمـدان، وأنـا أعرف أكثر مما تعرفين، أكثر مما يصرح به لك، وأنت في طريـق مازن عبد الحميد، وأنتما تمثلان على بعضكما اللامبالاة أو الحب أو الثقة أو التحرر، أو ما لست أدري. اسمعي، أنتما تتستران على بعضكما، وتخدعان بعضكما، لو كنت مكانك لقلت لمازن عبـد الحميد: ابق صديقي، ولكن سر في طريقك يا صديقي، وأبعد عن دربي، ثم لشددت يوسف من يده وقلت له: تعال أيها الأحمـق، أيها الطفل الأحمق، كفاك وكفاني تهريجا وتمثيلا. أنت لا ترين. أنا أرى وضع نجوى حمدان: أموال، سـيارات، بيـوت راحـة في طرطوس وبلودان. رحلات صيفية إلى أوربا، مطـاعم فـاخرة، علاقات بعلية القوم عن طريق تجارة والدها والمستشفى الذي بناه لها، ربما لتبييض أمواله كما يقول مازن عبد الحميد، ثم وقبل وبعد كل لك: دكتورة جميلة، وعلاقة جديدة بعد علاقـة متطاولـة وممتدة معك. يا رويدا أنت تظهرين اللامبالاة، بل تندفعين تحـت اسم الصداقة إلى علاقة عاطفية جديدة مع مازن عبد الحميد ، فأنا أعرف جيدا مناورات مازن وطرقه في الاقتراب من النساء، ربمـا، وهذا حقك، تريدين أن تعيدي اعتبارك أمام يوسف الذي تحسين أنه تخلى عنك. ثقي أنني تحدثت مع أخي وقلت له كل ما قلتـه لك. قلت له رأيي الخاص ورأيك المعلن والدفين، فأعاد التـأكيد على أنه يحبك، وأنكما متزوجان أمام ضميره، وأن علاقته المهنيـة ووضعه يقتضي منه بعض المجاملـة لنجـوى حمـدان وأهلـها

والمستشفى، وعندما حدثته عن علاقتك بمازن عبد الحميد قال أنه واثق بك وبه، وأنه لا يأخذ الأمر على محمل الخطـــر، وأنـــه في النهاية سيعيش معك عندما يستطيع حل المعضلة الطائفية، تعرفـين أن من الصعب عليه أن يغير دينه، أما نجوى حمدان فالعلاقة معـها أسهل، العلاقة ستستمر كما هي.

الآن أتذكر:

مرة، وكنا في لحظة حميمة. ذكر يوسف نجـــوى حمـــدان، فقلت له: ما الذي ذكرك بها الآن؟! عندما نكون معا لا تفكـــر بثالث.

أتذكر أيضا أنه مرة عاتبني لأنني حكيت لأخته ديمـــة عـــن خلافاتنا، فقلت له: أنت يا يوسف من أدخل طرفا ثالثـــا علـــى علاقتنا، دون أن أسمي له نجوى حمدان، لكنه فهم إيحائي.

إلى الآن لا أعرف لماذا كان يوسف يريد كتمان علاقتنـــــا وعدم إشهارها على الرغم من اقتناعه بها. كان يتعلل بالاختلاف الطائفي بيننا، وأنه لا يستطيع أمام المجتمع أن يغير دينه، وأن هـــذا سيسيء إلى أهله ومهنته وآخرين، فكنت أمازحه قائلة.

ـــ أنت يا يوسف لو كان لك دين لكنت على اســـــتعداد لتغييره، لكن مشكلتك أنك بلا دين.. بلا رب

يكفي تذكرا وكتابة اليوم. سأسمع موسيقى.

إني ما أزال أتذكر، وسأظل أتذكر طويلا، إني أتذكر وأتألم، وآلام الذكريات من أقسى الآلام.

إني أتذكر:

أتذكر الآن، وأسجل ذكرياتي لأعيـــها لأفـــهم ذاتي أولا، أتذكر مازن عبد الحميد وهو يقول لي:

أنا عدمي، ويوسف عبد النور عدمي مثلي، وربما أكثر مني، أو ربما هو عدمي بطريقة أخرى، فالخلاف بيننا يكمن في أني أرى أن لا شيء في هذه الحياة يستحق شيئا، ومن هذه النقطة أنطلـــق في حياتي وتصرفاتي وكتاباتي وترجماتي. من هذه النقطة تنطلـــق فلسفتي في الحياة. لا شيء، ومن هذا اللاشيء أحاول أن أصنـــع، أن أبني شيئا، أن أنسج علاقاتي وقيمي أن أعيـــش، أن أكتـــب، أعيش وأكتب دون أمل، ودون وهم، ليس هناك قيمة لشـــيء، ولكننا نتسلى عن هذا اللاشيء بمحاولة صنع شيء، ليس هنـــاك قيمة معطاة أو مسبقة لشيء، والحياة جوهرهـــا العـــدم، لكـــن الإنسان يحاول أن يفعل شيئا في هذه الحياة، ويحاول أن يكســـب وجوده بعضا من السلوان والمعنى، يحاول أن يتسلى، فيصنع شـيئا زائلا، شيئا هو لاشيء، لكنه شيء مثل الحبوب المخدرة، مثـــل التخدير الموضعي، وأنا أسميه بالتخدير الزمني. الإنسان هو الـــذي يصنع حياته، هو الذي يعطيها قيمتها، ويبني أخلاقه وقيمه وسلواه الخاصة، ويأتي الزمن بالعدم ليلاشي كل شيء. لا شيء يســـتحق أن نجري وراءه، أن نضيع عمرنا الضائع أصلا، أو الذي سـيضيع ذات لحظة، بالموت، بالهرم، أو بالمصادفة، بالألم، لا شيء يستحق العمل إلا السلوى، وإلا أن نحاول أن نصنع عمرا جميـــلا ونحـــن

نمضي. لحظة نور في ظلام هذا العدم نحن، وأنا اخــترت لحظــة نوري في الكتب والحياة الهادئة، في علاقات المــودة والشــرف والصداقة وشرب النبيذ والقهوة وسماع الموسيقى والتجوال وتأمل لوحات الرسم، أما يوسف عبد النور يا رويدا، وأنا أعرف أنــك في سرك تقارنينني به، دون أن تفصحي عن ذلك، فقــد أختــار طريقا آخر للتغلب على عدمه، أو ربما هو يستنتج من مقدمــاتي، والأصح مقدماتنا، فلقد بنينا أفكارنا في البداية معا، عندما كنــا زملاء وأصدقاء في الجامعة، أما يوسف يا رويدا فيســتنتج مــن المقدمات العدمية ذاتها موقفا معاكسا. يستنتج من مبدأ العدمية أن كل شيء مباح، وأن علينا أن نعب من اللذات المادية، من الحيـلة ما نستطيع، يوسف يريد أن يجسد لحظة الضوء، أو العبور في ليـل العدم، أما أنا.. أما أنا فأريد أن تبقى لهذه اللحظــة شــفافيتها الضوئية وأثيريتها. يوسف يستنتج أن كل شيء مباح، وأن علــى الإنسان أن يصل إلى ما سماه لي مرة «القمم التي يستطيع الوصول إليها» أما أنا فلا أعتقد بوجود هذه القمم، أعتقدها قمما وهميــة، سرابية، ولا أبالي بها إن وجدت.

نظر إلى لوحة فرعونية على حائط غرفتي. صمت لحظــة، ثم تابع:

أنا أرسم حياتي على طريقة الرسامين البدائيين والمصريــين القدماء والرسامين الحديثين عموما، أرسم اللوحة علــى ســطح شفاف مسطح واحد، أرسم في الضوء، ويوسف يظن، يظن أنــه يرسم لوحته على طريقة الرسامين الذين يقدمون لوحة ذات أبعاد

ثلاثة، لوحة تريد أن تكون حقيقية وذات عمق، أو بعد ثـــالث، لوحة مرسومة في المرسم، في الظل، ربما يوسف يريد أن ينحـــت، أو أن يجسد كتلة في الفراغ، أما أنا فرسام انطباعي، رسام مـــائي أحب أن أرسم على قماش أبيض أو على الأثـــير، أو المـــاء، أو الضوء، إن أمكن، لأنني أعتقد أن الأثير هو كل شيء، وأن الأثـير يتبدد في هذا الاتساع اللانهائي للكون، يتشكل ويتبدد كل لحظة، وهكذا فإن نظرتي التي تبدو سكونية للوهلة الأولى هـــي أكـــثر حركية مما يبدو، ومما يعتقد يوسف، يوسف الـــذي يـــرى أنـــه يستطيع أن يبني نصبا، أن يجسد تمثالا، ولو مؤقتا في الفـــراغ في العدم. العدم.. العدم... طويلا تناقشت في العدم مـــع يوســـف وغيره، وطويلا حدثتك عنه، لكن تلك مشكلة تبقـــى نظريـــة، والمشكلة العملية أن يوسف لا يؤمن بأية قيمة، لأن القيم ببســاطة غير موجودة عنده، أما أنا فأؤمن أن ما نفعله هو، ببساطة، القيم، أو هو القيمة الوحيدة التي تأتي لتزول، لكنها في لحظة عبورها، أو لحظة عبورنا، قد تساعدنا على النسيان والسلوى، قد تســـعدنا بدل أن تؤلمنا كبشر، تؤلمنا أو تؤ لم الآخرين. لهذا أحـــس بمعـــنى الأخلاق والمسؤولية. أحس بمعنى الألم. أحس بالألم.

هكذا كان مازن عبد الحميد يشرح لي الاختلاف بينه وبـين صديقه يوسف عبد النور، بعد أن عرفني يوسف علـــى صديقـــه القديم، والذي «قليلا ما يلتقي به هذه الأيام» كما قال لي لحظـــة تعريفي إليه في إحدى السهرات. فيما بعد عرفت أنهمـــا كانـــا صديقين حميمين وافترقا دون خصام، واســـتغربت أن يوســـف

حدثني عن كل أصدقائه، ما عدا مازن، قبل أن ألتقي به وكأنه ذكرى مرحلة يريد نسيانها، ثم فوجئت بقوة العلاقة السابقة بينهما، وبعدها قلت، ربما تناسيا بعضهما لأن مازن كان يحب ديمة عبد النور أخت يوسف، ثم انفصلا، ومازن قال لي إنهما انفصلا لأسباب طائفية، وأن يوسف هو الذي زرع التفكير الطائفي في ذهن ديمة المتحرر، وأن ديمة لم تستطع التغلب على وضعها الطائفي، أما ديمة فقد كانت تتألم عندما تتذكر مازن عبد الحميد إذا حدثتها عنه، أو عندما تصادفه في بيتي، أو في السهرات المشتركة، ومرة قالت لي:

لا تصدقي أن الأوضاع الطائفية، وحتى الاعتقادات الطائفية، يمكنها أن تنهي أو توقف حبا حقيقيا، فما يحبه المرء حبا حقيقيا، وصحيحا، يدوم.

إني أتذكر:

أتذكر أن مازن عبد الحميد قال لي أنهم كانوا مجموعة أصدقاء ومن بينها يوسف وأخته ديمة عبد النور، تخرجوا من الجامعة أوائل السبعينات، كان مازن يدرس الأدب الإنكليزي، وديمة اللغة العربية، أما يوسف فقد كان يدرس في كلية الطب، كان مازن، وبعد أن توثقت صداقتنا يقول لي. أنت من جيل الثمانينات، مثل نجوى حمدان، أما أنا فمن جيل السبعينات

الآن أتذكر:

أوائل التسعينات ، وكانت علاقتي بيوسف قد بدأت تتوتر، بعد أن كان قد بدأ العمل في مستشفى نجوى حمدان، أتذكر أن مازن عبد الحميد أتى إلي ذات مساء، وبعد أن شربنا شايا في العمل، قال لي:

ـــ يا رويدا، يوسف سار في طريق آخر.

لا أتذكر سبب قوله هذا، أو مناسبته، لكني أتذكر أني امتعضت من مازن، واعتبرت كلامه وشاية، أو تعريضا بصديقه القديم، وربما محاولة منه لإبلاغي رسالة ما، رسالة قد تكون تعني يوسف، وقد تعنيني شخصيا، أو ربما محاولة لتعكير العلاقة بيني وبين يوسف، أملا في أن يستطيع الصيد في الماء الذي عكره، وبعدها بشهرين عرفت حقيقة ما كان مازن يود إبلاغي إياه، كان يريد إبلاغي الحادثة التي كسرت قلبي وحياتي، كسرت أحلامي، كسرت كل شيء بيني وبين يوسف، والتي عرفها مازن عن طريق نجوى حمدان، أما أنا فقد رواها لي يوسف فيما بعد، وها أنذا أتذكرها وأكتبها كما رواها لي يوسف:

بعد انتهاء الدوام الرسمي، أو انتهاء مناوبة يوسف ونجوى في إحدى الليالي، وكان يوسف على موعد معي للعشاء في مطعم السنابل، وكنت أنا الداعية. خرج في الساعة التاسعة هو ونجوى حمدان من المستشفى، فعرضت عليه أن توصله بسيارتها، وفي السيارة قالت له:

ـــ ألا يشرب الزملاء القهوة معا بعد العمل؟

أجابها:

ـــ بالطبع

قالت:

ـــ أين تريد أن نذهب؟

قال يوسف:

ـــ إلى حيث تشائين

قال لي يوسف، في اليوم الثاني معتذرا، أنه ذهب إلى عملية إسعاف سريعة في مستشفى آخر، وبعد شهرين قال لي الحقيقة وقال لي إنه لم يشعر بنفسه إلا وهو في بيت نجوى حمدان الصيفي في بلودان، لم يكن هناك أحد في البيت الجميل والأنيق والفاخر كما وصفه لي آنذاك، تعشيا وعادا في وقت متأخر من الليل، بينما كنت أنا أنتظر يوسف وأجلس وحيدة في مطعم السنابل محاولة الاتصال بالمستشفى، من الساعة التاسعة إلى الساعة العاشرة، أما نجوى حمدان، فقد التقت مازن عبد الحميد مساء اليوم التالي، وشربا قهوة في أحد المقاهي ، وأبلغته بانتهاء علاقتها به، وبدء علاقتها بيوسف عبد النور، كانت واضحة وصريحة، هكذا حدثني مازن بعد أن تصارحنا حول كل شيء.

أتذكر الآن أن يوسف حدثني عن لقاء بلودان مرة ثانية، وأثناء إحدى لحظات التراضي والتناسي قال لي يوسف أن نجوى حمدان قالت له:

ـــ يوسف ... ألا تعرف أنني أحبك؟

قال يوسف: كذبت عليها وقلت لها بأني لم ألاحظ شيئا، وأني أعتبر الموضوع مودة زمالة في مهنة تقتضي اللطف. فقالت نجوى حمدان:

ـــ أعرف الآن أني أحبك وأريدك

قال لي يوسف بأنه قال لها بأن من الأفضل أن يبقيا زملاء وأصدقاء ولكن حدث ما حدث، فسألت يوسف:

ـــ لماذا كذبت عليها، وأنت تلاحظ محاولتها لمغازلتك منذ زمن، وقد حدثتني عنها. لماذا لا تعرفني عليها؟ لماذا لم تدعها للعشاء معنا ليلتها، لماذا لا تدعوها للعشاء معنا في مطعم، أو في بيتي.. أنت تريد للعبة أن تستمر يا يوسف ... أنت مسرور، وربما ترغب فيما يحدث.

أتذكر الآن أن يوسف أجابني وقتها:

ـــ رويدا.. يا رويدا.. يا قليلة العقل.. أما مضطر لمجاملتها.. فهي ابنة صاحب المستشفى، بل هي مالكته الفعلية، فالمستشفى في النهاية لها، ثم أن الأمر لم يتعد شرب فنجان قهوة في بلودان.

وكنت أعرف أنه كان يطمئنني، وأنه يكذب، وأنه نام معها تلك الليلة.

الآن أتذكر:

مرة كنا، يوسف وأنا ومجموعة أصدقاء، في سيران ربيعي في الغوطة، أوائل فصل الربيع، وفي البستان أتت غجرية بصارة وبصرت لنا، فعلنا ذلك على سبيل اللعب، قالت البصارة يومها ليوسف:

ـ هناك فتاة طيبة تحبك من زمن طويل، وأنت تضحك عليها، عيناك إلى الخارج، أرجع إلى حبيبتك أفضل لك

وقالت لي:

ـ أنت بنت عاقلة تحبين شخصا يضحك عليك، اتركيه أفضل لك

الآن أعرف لماذا انتهر يوسف الغجرية، ولماذا لم يضحك مثلما ضحكنا جميعا.... الآن أفهم سبب ثورة يوسف على الغجرية ووصفها بالكذابة والسخيفة.. في حين بدا الأمر لنا مزاحا في مزاح.

إنني أتذكر:

أتذكر وآسف على كل ما حصل، فيوسف بالنسبة لي هو الأسف ـ ولا أقول الندم ـ مجسدا. آسفة لأنني تعرفت إليه، وآسفة لأنني أحببته، وآسفة لأنه أحبني، آسفة لأننا افترقنا، وآسفة لأننا التقينا، آسفة لأجل حادث السيارة الفاجع، وآسفة لأجل الضحايا، وآسفة لأن يوسف مات، آسفة لأجل موت ديمة، وآسفة لموت أم نجوى حمدان وأبيها، وآسفة لوضع نجوى مشلولة في مستشفاها، مستشفاها الذي بنت علاقتها فيه مع يوسف، مستشفاها الذي أغرتك به وفيه يا يوسف، آسفة لأجلك يا نجوى حمدان، وأتمنى لو كان هناك وسيلة لإبلاغك أسفي، ولكني

لا أعرفك إلا من خلال يوسف الذي مات، ومازن عبد الحميد الذي صمم على عدم زيارتك في المستشفى قائلا لي:

ــ أنا منذ مدة طويلة لم أر نجوى حمدان، ولا يحتاج الأمر إلى أربعة ضحايا، وشلل خامس حتى أراها.. لو كنت أريد أن أراها، أو لو كانت هي تريد أن تراني، لالتقينا قبل هذا الحادث الفاجع،

كم أنت قاس يا مازن.

آسفة لأجلك يا نجوى، وأنا واثقة أنني لو زرتك في المستشفى، فإنك ستفسرين زيارتي على أنها نوع من الشماتة إذا عرفت من أنا، أما إذا لم تعرفي فما الداعي؟ ربما أذكرك بأمور ــ إذا عرفتني ــ لا تريدين تذكرها. مازن قال لي بأن من الأفضل ألا أزورك، قال بأن من الأفضل لو التقيتما وتعارفتما في الماضي، أما الآن فقد فات الأون، وستكون الزيارة في غير زمانها ومكانها، إلا إذا كنت ترين رأيا آخر.. هذه طريقة مازن في الكلام، يقول رأيه، أو يوحي به، ويدع القرار للآخر، أما يوسف فقد كان يقول لي افعلي، لا تفعلي.. في بداية تعرفي بمازن قارنت في سري بين الشخصيتين، واعتبرت يوسف شخصية عملية قوية، شخصية متماسكة، ومازن صاحب شخصية مهلهلة وضعيفة، وكنت أسميها تأدبا: حالمة. أما الآن فصرت أعرف أن من يملي رأيه على الآخرين هو الضعيف حقا، هو غير السوي، هو الذي يخفي خلف قناع القوة، عدم ثقة بالنفس وبالآخر، أما من يترك للآخر

حرية القرار، أو اتخاذ الموقف، أو التعبير عن الرأي، فهو الواثق بنفسه وبرأيه، وبالآخر.

الآن أتذكر، أتذكر وأعي الفروق والاختلافات بين نماذج البشر وطبائعهم، وأعي دلالتها، فقد كنت عندما أتخاصم مع يوسف، يشتمني ويقرعني، بل ويستعمل معي كلمات مثل: حقيرة، تافهة، جبانة، ولا أريد الآن أن أستذكر كل كلماته المهينة، وبالمقابل عندما تخاصمت مع مازن مرة، وخرجت عن طوري، استعملت معه بعض كلمات يوسف معي، وقلت له: أنت ضعيف الشخصية، كسول، جبان، وبلا طموح، بل واستعملت كلمة: حقير، نعم استعملتها وأنا نادمة، وربما بعدوى أصابتني من يوسف، فالكلمة ليست من قاموسي، ولا من كلماتي، بل استعملت مع مازن عبارة محددة سبق أن قالها لي يوسف، قلت لمازن:

ــ أعترف أنني لم أستطع تغييرك.

الآن أتذكر، وقد حصل ذلك منذ شهرين، أن دمعتين ترقرقتا في عيني مازن، وأن صوته كان يتلجلج في حلقه وهو يقول لي بصراحة غير معهودة بالنسبة لي منه:

ــ اسمعي يا رويدا الرفاعي.. إذا كنت تظنينني يوسف عبد النور فأنت مخطئة، أنا إذا أدرت ظهري، حتى لصداقة، فسأديره إلى الأبد، ولهذا فأنا أتريث وأتحمل وأتجاهل وأدعي أنني لا أرى ولا ألاحظ، اسمعي، قليلا ما تحدثت عن نفسي، وكنت آمل أن تفهميني من سلوكي، ومن كتبي.. اسمعي أنا رفضت إغراءات

كثيرة، كثيرة وأكثر من إغراءات يوسف عبد النور التي جـــــرى وراءها.. اسمعي أنا ضد كل الأفكار والأوضاع السائدة في هـــذه البلاد، بل وفي هذا العالم، ولدي الشجاعة للوقوف ضدها علنـــا، وها أنت ذي تصفينني بالجبان لأمر تافه، أو أراه تافـــــها .. لــــن تستطيع قوة على وجه الأرض. وحتى واحدة مثلك أن تغيرني، أو أن تغير قناعاتي طالما ما زلت أراها صحيحة... لــــن أعيـــش إلا قناعاتي. معك أو مع غيرك، بدونك ودون أحد، مع الحياة، أو مع الموت.

أتذكر الآن أني قاطعته لأزيد إثارته:

ـــ ولكن اشتمني.. اضربني.. ولا تتفلسف علي هكذا.

بوضوح، أرى الآن دموع عينيه وأسمع تلجلــــج صوتـــه، وأتذكر إحساسي بالاحتقار له آنذاك، ولكــــن أعـــرف الآن أن دموعه كانت مصدر قوته، وأنها كانت وسيلته في ضبط أعصابه، أسمعه بوضوح الآن وهو يقول لي آنذاك، ومن خـــلال دموعـــه وصوته المتلجلج:

ـــ إذا كنت بهذه الصفات التي تذكرينها [او لم يكن يتلفـــظ بها أو يعيدها على مسمعي] لماذا لا تتركيني وتمشين في طريقك؟! تذكري أنك في بيتي وأنك ضيفتي، احترمي هذا على الأقل؟ نحـــن لم يحدث بيننا شيء.. نحن ما زلنا مجرد أصدقاء، من أين لك الحق في مخاطبتي هكذا؟ لا تنتقمي من يوسف عبد النور عن طريقـــي.. لا تقولي مثل هذا الكلام لأحد غيري فلن يتحمل،ولكن إذا كنت تشعرين هكذا.. إذا كانت هذه مشاعرك ولغتك، فوجهيـــــها في

وجهتها الصحيحة، وليس إلى أنا.. لا توقظي العنف والقساوة اللذين أقبرهما في داخلي. لا توقظي الوحش المروض في أعماقي، أنا إنسان قاس جدا، ولكنني دربت نفسي على أن أكون رحيما ولطيفا، دربت نفسي على فهم الناس وتحملهم. قد أبكي وأنا أقرأ رواية، وأنا أشاهد فيلما، وأنا أرى طفلا متسولا، لكن قوى العالم كلها لا تستطيع أن تجعلني أتنازل عن فكرة أعتقد صحتها، فأين هو الضعف، وأين هي الشجاعة يا آنسة؟

يا إلهي .. يا رب ارحم.. من أين امتلكت كل هذه الجرأة، كل هذه الوقاحة، لأتكلم مع مازن عبد الحميد مثل هذا الكلام وليس بيننا إلا الصداقة، وأنا ضيفته في بيته؟ كيف أخرجت كل أعماقي وقذاراتي الدفينة دفعة واحدة، وألقيتها على أول شخص صادفته في طريقي، لأنني لم أستطع إلقاءها حيث يجب أن ترمى، وأنا على كل حال ما كنت أعتقد أنني أحمل مثل تلك القذارات في أعماقي، أو أنني يمكن أن أقول مثل هذه الأقوال لأي كان، فما بالك برجل أو بصديق، وكاتب معروف يحاول أن يتقرب مني، دون أن يسيء التصرف معي مرة واحدة، وأنا، أنا التي طلبت أن أزوره، وجئت إليه في بيته.

أتذكر الآن نهاية المشهد، أتذكر أنني قلت لمازن وهو يدمع:

ــ ألا تستحي على نفسك.. تبكي.. ألست رجلا؟ لماذا تبكي مثل النساء؟

أتذكر الآن جوابه، وكأني أسمعه.. كأني أراه الآن أمامي، أراه يحاول الابتسام من خلال دموعه وهو يقول:

ـــ ما لهن النساء؟! أنا أفضلهن على الرجال. أنا لا أحب رجالك الأقوياء، ولكن لا تفهميني خطأ.. لا تعتبري بكائي هو ضعفي، قوتي وضعفي يكمنان في مجال آخر، وأنا أخاف إطلاقهما، أنا رجل عدمي وملحد، لكن ثقافتي عربية وإنسانية، بل وإسلامية.. النبي محمد بكى عندما مات طفله قاسم، وعندما رآه أصحابه يبكي سألوه، ربما مستنكرين: أتبكي وأنت رسول الله؟! كان جوابه واصفا دموعه:

ـــ هذه رحمة وضعها الله في قلوب عباده

قلت له: ولكن محمدا مات ابنه.

أجابني:

ـــ أنت قلت لي أمورا،، ووصفتني أوصافا، لو كانت صحيحة لكانت هي موتي.. بل وكانت أقسى علي من الموت.. أقسى من العدم.. رويدا، لا تطلقي العنف النائم، العنف الكامن في أعماقي، فلقد بذلت الكثير لأبعده إلى أعمق أعماقي. إنسي كل ما حدث يا رويدا.. أنا سأنسى وأعتبر الموضوع فقاعة غضب، مثل فقاعة صابون، وأنا أعرفك جيدا وأعرف كم أنت جريحة من يوسف.. أنا أفهمك ولهذا أنا صديقك.. ولكن أرجوك، أرجوك. لا تحدثيني عن الرجولة والطموح والصعود، وتحسين مستوى الحياة المادي بعد اليوم.. إذا فعلتها أنا، إذا صعدت مثل صعود يوسف، فإن صداقتنا ستنتهي.. أرجوك.. لو كنت أفكر بالصعود هكذا ما كنا التقينا،

ثم ختم الحديث، بل والمشهد كله بضحكة، وهو يقـــول، بصوت هادئ واثق:

ــ أنا أعرف ما أريد، أعرفه تماما. أعرف طريقي جيـــدا في هذه الحياة، وسأتجرعه، سأتجرع طريقي كما تجرع سقراط سمه.

سكت ثم أضاف ممازحا:

ــ أم أنك لا تعرفين قصة حياة سقراط وموته.. يا دارســة الفلسفة غير النجيبة؟

الآن أفكر: كيف اجتمعنا، كل واحد من بلدة في ســورية، وكل واحد من مكان. يوسف وديمة من حمص، أنا من إدلــب، مازن من حلب، نجوى من دمشق، كيف اجتمعنا، لننسج هــذه القصة... هذه القصص، كيف تقاطعت مصائرنــا، ثم كيــف تفرقت، فكانت حياتنا؟!

هل الأمر مجرد مصادفات وحوادث دون منطق مــا؟ هــل تكون الحياة كلها هكذا؟!

إني أتذكر:

أتذكر لأفهم، أستعيد تجربتي علي أجد لحياتي، ولما حــدث، معني. أريد أن أفهم نفسي، أن أفهم يوسف عبد النــور وأختــه ديمة، أريد أن أفهم مازن عبد الحميد ونجوى حمــدان، أريــد أن أفهم معنى موت أربعة أشخاص، ورقود نجوى حمدان مشلولة أبد الدهر، أريد أن أفهم قصتي مع يوسف، أريد أن أفهم إخفــاقي في

فهم يوسف، إخفاقي في فهم نفسي وما حدث، الآن أسائل نفسي:

ألست أنا رويدا الرفاعي، أول ضحايا هذه السيارة المشؤومة، ألم تنكسر علاقتي بيوسف، يوم ذهب مع نجوى حمدان إلى بلودان في هذه السيارة القاتلة إياها؟

الآن، أتذكر أحاديث يوسف، أتذكر حديث يوسف عن سيارة نجوى حمدان، أتذكر يوم قال لي: باركي لي.. باركي لي.. ستكون عندي سيارة، أتذكر يوم أعارته نجوى سيارتها وذهبنا بها إلى معلولا.. أتذكر يوم أعطته نجوى السيارة على أساس أنه طبيب المستشفى، أتذكر يوم أتى إلي بالسيارة. وكنت أظنها سيارة المستشفى، كما قال لي، لا سيارة نجوى، يوم أتى إلى مساء في البيت دون موعد، وقال لي: ها قد أتيت إليك سائقا سيارة المستشفى.. هذه أول مرة أقود فيها سيارة في شوارع دمشق. وعندما خرج طلب مني أن أرافقه لأنه سيشعر بالأمان والثقة أكثر، كان خائفا وقلقا، فخرجت معه، وكانت طرفة أن أوصله أنا إلى بيته في سيارة يقودها هو، ثم أعود أنا إلى بيتي وحيدة آخر الليل في سيارة أجرة.. أتذكر أنني كنت غير سعيدة بهذه السيارة، ربما لأن هذه السيارة تذكرني بنجوى ومستشفاها. أذكر أن يوسف قال لي مرة ونحن نتحدث عن السيارات وضرورها:

ـــ أنت عندك عقدة من السيارات

كان يجب أن أجيبه وقتها هكذا:

ـ العقدة عندك أنت.. عند من يريد امتلاك السيارة بأي وسيلة.

لكنني لم أفكر هكذا يومها، ومنذ شهر فقط سمعت أن يوسف اشترى سيارة نجوى حمدان القديمة إياها، وأن أباها، أو هي، اشترت لنفسها سيارة جديدة، والآن أعرف ما فعلت هذه السيارة بيوسف ونجوى وديمة وأم نجوى وأبي نجوى، بل وبنجوى، ففيها ماتوا، وعن طريقها دفنوا، مثلما دفنت السيارة إلى الأبد، ولكن لماذا حصل كل ذلك.. أنا لا أفهم وربما لن أفهم. لكنني مصرة على أن أفهم، هل هو مجرد حادث سير وأنا أحمله أكثر مما يحتمل؟! لا أعرف.

الآن أتذكر:

مرة كنا في مطعم السنابل. كان ذلك في نهاية السنة الأولى من علاقتنا فجأة قال لي يوسف: هل تتزوجيني يا رويدا؟ قلت: نعم. قال هات يدك نتعاهد. مددت يدي وتصافحنا، قال لنقل معا: نحن زوجان أمام ضميرينا. معا رددنا: نحن زوجان أمام ضميرينا.

قال: كأسك. شربنا معا النبيذ. قال: نحن زوجان إلى الأبد. قلت: إلى الأبد ومعا قلنا: إلى الأبد

إني أتذكر:

أتذكر، وأكتب محاولة ترتيب أفكاري لأفهم ما حـــــدث، لأفهم فاجعة السيارة، ولأفهم نفسي، وربما هناك رابط ما بينهما، أتذكر وأكتب لأوضح أفكاري، وأرتبها، ومازن عبد الحميد هــو الذي اقترح علي ذلك، هو الذي اقترح هذه الوســـيلة للراحـــة والفهم.

قال لي مازن بعد أن عدنا من تشييع جثماني يوسف وديمـــة عبد النور في حمص، ورأى شدة أساي وانفعالي:

ـــ هذه فاجعة إنسانية كبيرة.. أنا متألم لأجل يوسف وديمة، بل ولأجل الجميع.. لأجل نجوى حمدان التي ستقضي بقية عمرها مشلولة في الفراش.. أنا أعرف مشاعرك يا رويدا، أنت حساســـة ورقيقة، وأعرف كم أحببت يوسف وديمة،أعرف أنك ما زلـــت تحبين يوسف في أعماقك... أنت حساسيتك لا تحتمل مثل هـــذه الفواجع.. لا تخجلي من البكاء ابكي.. ولكن ارتاحي، أنا بكيت في الجنازة. هدئي أعصابك.. ما رأيك أن تكتبي كل ما تفكريـــن به، كل ما تتذكرينه... إبقي مع نفسك فترة.. إبقي دوني، ودون أي شخص آخر.. لكن عليك بالكتابة لنفسك، الكتابة وســـيلة سحرية، تقنية عظيمة للسيطرة على النفس، على الأحداث، بـــل وعلى العالم.. أعظم مهدئ للأعصاب هو أو هي الكتابة.. وسيلة للتفريغ والتسامي.. ما رأيك في أن تذهبي إلى كسب، هناك فندق جبلي صغير، نزل في غابة عند عائلة، أنا أذهب إليه كلما قـــورت

الاختلاء بنفسي والكتابة، أصحاب النزل صاروا أصدقائي من كثرة ترددي عليهم. سأوصيهم بك،...اذهبي وحدك، تجولي في الغابة، عيشي معهم حياتهم البسيطة، اسمعي الموسيقى وصوت فيروز واكتبي.. اكتبي ما تشائين، اكتبي وكأنك تتكلمين، دون رقيب أو حسيب أو غاية.. اكتبي كما تفكرين وبطريقة عفوية... أو لا تكتبي إذا لم تشعري بالحاجة.. إنسي، أو اذكري، اذكري وفكري أو لا تتذكري ولا تفكري، لا تقسري نفسك على شيء، وعودي إن لم يعجبك المكان، أو اذهبي إلى البحر، لكنني أنصحك بهذا الفندق الجبلي، وأرى أن من الأفضل أن تكوني وحدك.. اغسلي داخلك، أو أطلي على شعورك ولا شعورك، ناقشي نفسك، لاطفيها وأنبيها، لا تكوني رحيمة معها، دوري حولها من كل الجهات، وتوغلي في غاباتها، في رياضها ومستنقعاتها، لامسي ورودها وأشواكها، لا تتفاجئي بشيء داخلك، أو تخجلي من شيء، سترين الورود والقذارات، هكذا نحن، إعرفي نفسك إن استطعت، أنت درست الفلسفة وعلم النفس، وليس كلامي بغريب عليك، وإذا احتجت إلي فأبلغيني.. سآتي إليك، وأكون معك، لكن الأفضل أن تكوني الآن وحدك.. وحدك...

ثم أضاف مبتسما:

ــ لعلك عرفت الآن لماذا أنعزل أحيانا.. لماذا أكتب.. لعلك ستعرفين، في كسب، كيف استطعت احتمال ما مر بي.. لعلك ستعرفين طريقتي في مغالبة الألم والعدم.

ومبتسما أكثر، وحتى يضفي جو الحبور على الموضوع أضاف:

ــ ستعرفين كيف استطعت احتمال غلاظتك..

الآن أتذكر:

بعد أن اتضحت علاقة يوسف بنجوى لي وللجميع، وبعد أن قطعت علاقتي العاطفية بيوسف، لكننا بقينا نلتقي، كأصدقاء كما قال، أو كما طلب، لاحظت أن مازن صار يتقرب مني، ومع تقرب مازن عاد يوسف يحاول الإيحاء بأنه يريد عودة العلاقة معي، وأنه يحبني على الرغم من علاقته المستمرة بنجوى حمدان ومستشفاها، فقلت في نفسي ذات يوم بأن علي أن أنهي هذه العلاقة مع يوسف إلى الأبد، إما سلبا وإما إيجابا، إما أن يترك نجوى ومستشفاها، ويعود إلي، وإما أن نتباعد إلى الأبد، ودون أي اتصال أو لقاء. سأطرح على يوسف إعلان الزواج فورا، والعيش المشترك في بيت واحد، فإن رضي أرحنا نفسينا، وأرحنا نجوى حمدان، ومازن عبد الحميد، وإن لم يرض أقطع علاقتي وأشق طريقي مع مازن، أو غيره.

إنني أتذكر، أتذكر تماما الحديث الذي جرى بيننا يومها، وفي بيتي أنا. قلت له:

ــ انظر يا يوسف.. لو مت وعشت ومت ألف مرة، سأظل أعتبرك المخطئ في علاقتنا.. ومع ذلك اعتبرني أنا المخطئة وسامحني.. سامحني واغفر لي.. فالحب يقوم على الغفران.. على

المسامحة، أنت من معدن طيب يا يوسف وحبك يعيد لي طيبتي وصفائي، يعيد إلي حلمي.

الآن أفكر:

يبدو أنني كنت أريد أو أؤثر عليه ببلاغتي أو أنني، بحديثي عن الغفران والذنب والمسامحة، كنت أريد أن أفهمه أنني لا أغفر له ولا أسامحه ولا أنسى شيئا، لكنه أجابني وقتها الجواب الذي أنهى كل شيء في نفسي:

ـــ لا مجال لإعادة العلاقة كما كانت.. أو حتى للزواج.. لا شيء يعود إلى الوراء.. تحت الجسور جرت مياه كثيرة.. لكن، إذا كنت ترغبين في ممارسة الجنس، فلا مانع لدي.

هكذا أجابني، وبالحرف الواحد.

لا أدري أي ملاك تلبسني، أو دخل عقلي وقلبي وقتها، ربما شدة هول الصدمة.. وقتها تصرفت وكأني لم أسمع إهانته. قمت لأحضر فنجاني قهوة، وأنا أقول كمن ينهي حديثا:

ـــ شكرا.. المسألة ليست مسألة جنس يا دكتور.

الآن أتذكر، أتذكر وأكاد أتقيأ، أكاد أتقيأ وأنا أتذكر هذه الحادثة، وهذا الكلام، أو هذا العرض الشائن، فهل كان يعتقد أني مجرد طالبة لحظة عابرة؟ أو هل كان يريد أن يعيد العلاقة معي فعلا، ولكن من باب موارب هو الجنس، لأن كبرياءه لا تسمح له بالاعتراف بالخطأ؟ ربما.. هل كان يريد أن يذلني. ربما.

يا إلهي.. لماذا لم أبصق في وجهك وقتها يا يوسف؟

إنني أكتب لأفهم نفسي،، لأفهم يوسف، لا لأدين أحدا أو موقفا أو حادثة، وخاصة بعد أن حدث ما حدث، ومات من مات، أكتب لأفهم نفسي، لأفهم الحادث والأحداث، أكتب لتتوضح الأمور في ذهني، لا لأدين أو لأشمت أو أتشفى، إنني أحاول أو أوضح نفسي وتاريخي وحياتي، فأنا امرأة تقارب أوج عمرها، إمرأة في أواخر الثلاثينيات وإذا لم أفهم معنى حياتي وتاريخي وما حدث، فلن أفهمها في الزمن الآتي، لن أبني مستقبلا.

أكتب لأفهم، أتذكر وأكتب لتنجلي الأمور لي، لكن أكان من الضروري أن يموت أربعة أشخاص، أحدهم كان مشروع عمري، والآخر كان صديقي المقرب، واثنان لا أعرفهما، ويعطب خامس، أكان من الضروري أن يحدث كل ذلك حتى أعي لنفسي، حتى أتوقف وكأنني ذلك البدائي الذي كان يصعد الجبل، ثم توقف منتظرا روحه، لأنه شعر أنه أسرع في الصعود، وأن روحه التعبة لا تستطيع مجاراته في سعيه اللاهث والحثيث للوصول إلى القمة، وهو يحمل كل هذه الأثقال؟ أكان من الضروري أن يحدث ما حدث لأغوص في تاريخي وذاتي، في وعيي ولا وعيي؟

كان يكفي حادث أقل فجائعية، أقل موتا، أقل ألما، كان يكفي وقفة هادئة مع النفس، ومنذ فترة بعيدة.. لكن من يدري.. من يدري. فربما لو كنا قادرين على مثل هذه الوقفات الهادئة مع النفس، لو كنا قادرين على انتظار أرواحنا التعبة. لو كنا قادرين على مصارحة أنفسنا واكتشاف دواخلنا والغوص إلى أعماقنا،

أعماق ذواتنا وتواريخنا، لو كنا نملك مثل هذه الفضيلة، مثل هذه الشجاعة، ما كنا لنتعرض لمثل ما نتعرض له، لمثل ما تعرضنا لـه، ما كانت حصلت هذه الفاجعة. ما كنت سرت في هذا الطريق المميت يا يوسف.

لماذا سرت في هذا الطريق يا يوسف؟!

الآن أتذكر:

أتذكر وأكتب، وأحاول أن أفهم. أحاول أن أفهم سر صداقة مازن عبد الحميد لي، على الرغم من الفروق بيننا في العمر والمكانة والخبرة والثقافة, أريد أن أفهم سر ــ ولأقلها صراحة لنفسي، فربما يرضيني هذا ــ سر تعلقه بي، وعلى الرغم من معرفته تفاصيل علاقتي بيوسف، بل وتفاصيل بعض تصرفاتي وغرامياتي الطائشة بعد انفصالي النهائي عن يوسف، على الرغم من أن لا شيء عاطفي بيننا:

الآن أتذكر:

سألت مرة مازن عبد الحميد:

ــ لماذا تريد أن نكون أصدقاء؟!

أجاب:

ــ اسمعي يا رويدا، ربما لن أتكلم في المستقبل، وربما لن أكتب بالطريقة التي سأتكلم بها معك الآن ولكني لدي رغبة الآن في قول ما سأقول، وأشعر أنني سأقوله مرة واحدة، ربما أريد أن

أقوله لنفسي أكثر مما أريد أن أقوله لك.. اسمعي.. أنا مازن عبد الحميد الكاتب الذي تعرفين، والذي لم تقرأي كتبه على الرغم من معرفتك الشخصية به، وثقي أن هذا أراحني، لأنني أريد أن أصادقك صداقة إنسان لإنسان، شخص لشخص، أريدك أن تعرفيني كما أنا وعلى حقيقتي، فالكتابة قد تكون أحيانا وسيلة لإخفاء الذات ووضع قناع على الوجه، أو الشخصية، مثلما قد تكون وسيلة لكشف الذات، وأنا أكتب، ولا أعرف هل أكشف ذاتي أم أخفيها في كتابتي، هل أكتب لأفضح نفسي، أم لأتستر على فضائحها، ولهذا أريد صديقا، أريد إنسانا آخر، أريد مرآة أكثر صفاء من مرآتي، من كتابتي.. هل فهمت شيئا مما قلت؟ لا أعرف. ولكني لم أقل لك الآن ما أريد قوله.. ما أريد قوله هو التالي:

الآن أتذكر: قطب وجهه، صمت حوالي دقيقتين، ولم أكسر صمته بأي كلمة، لأنني عرفت أنه يستجمع أفكاره ثم تكلم:

ـــ إنني من جيل تربى على المطلقات وحلم بها، بل وحاول تحقيقها في العالم، هذا العالم النسبي، أو اقتنع، في وقت ما بإمكانية تحقيقها. حلم وآمن بإمكانية الحلم. جيل حلم بالعدالة والاشتراكية، حلم بالسلام، حلم بالحرية، آمن بالإنسان، وهو مطلق آخر من أخطر المطلقات.. آمنت بمطلق آخر هو الحب.. الحب حتى لو لم تكن محبوبا.. الاشتراكية فشلت، والعدالة أراها الآن بعيدة، والحب أبعد وأبعد، أما الإنسان فأنت ترين ما نفعل،

سواء في حيواتنا الخاصة، أو ما يحدث في العالم من مجازر وحروب وسلب وقتل وفقر.. الحرية تحولت إلى سجون، وحتى حلمنا السياسي والنسبي بالوحدة تحول إلى مزيد من التفتت والتجزئة والطائفية و.. لكني لن أتخلى عن مطلقاتي، لن أتخلى عن الحلم بها، بل وعن عيشها. الإنسان يهان ويهين بعضه بعضا في كل مكان، بل ويأتي من الأفعال ما تشمئز منه النفس، لكني مؤمن بمطلق اسمه الإنسان.. أحيانا أسائل نفسي وماذا فعلت هذه المطلقات يا أستاذ مازن غير الجرائم؟ ماذا فعلت مطلقات الدين والقومية؟ ماذا فعلت مطلقات المسيحية والإسلام واليهودية والشيوعية غير الجرائم، هذا من المطلقات الكبرى، أما المطلقات الصغرى مثل النازية والفاشية والصهيونية والقومية فلا حد لجرائمها، أحيانا أقول لنفسي هذه جرائم ارتكبت باسم هذه المطلقات، هناك مطلقات بشرية مثل التي ذكرتها، لكن المطلقات العامة، كالعدالة والحب والسلام والإنسان والخير والجمال والحق هي مطلقات لا تمس.. وأحيانا أقول أنني مجنون، فلقد رأيت وعانيت من ضروب الخذلان والوجع ما يكفي لجعلي أكفر بكل ما ذكرت من مطلقات، ولكني متمسك بالمطلقات الكبرى بالمطلقات الكونية العامة، ربما أنا مريض بهذه المطلقات، إنني ملحد، لكنني أحن إلى المطلق حنين صوفي مسلم، وربما كانت هي وسيلتي للتوازن، وسيلتي للمعان أو للإضاءة في هذا العدم المظلم.

سكت ورشف من قهوته التي بردت، ثم أضاف:

ـ بالنسبة لغيري، الأمور أسهل من ذلك بكثير.. إنهم يؤمنون بالنسبي والممكن.. خذي يوسف مثلا، يوسف الذي تقارنينني به في أعماقك دون أن تقولي ذلك لي.. أعرف ذلك.. يوسف حالته أفضل من حالتي، ونجوى حمدان وضعها أفضل... بل وحتى ديمة كذلك، وربما أنت أيضا.... إنكم تؤمنون بالنسبي والممكن، بل وبالأفضل، وتسعون لتحقيقه، إنكم تستنفذون الممكن، أما أنا فما أزال أداور المطلق، يوسف كان بإمكانه أن يكون عازفا موسيقيا عظيما لكنه رأى أن مهنة الطب أفضل، فصار طبيبا كبيرا وترك الموسيقى، قلت له مرة: أنت خنت موهبتك يا يوسف، فضحك وأجابني في إحدى لحظات صدقه: بل بعتها بثمن أفضل. وها هو الآن طبيب ناجح ويكاد يكون مدير أو صاحب مستشفى، بيت ومكانة وسيارة وغدا تأتي الزوجة، نجوى حمدان، أو أنت، ربما، أو غيركما، ليست مشكلة، يوسف حلم مثلي بالاشتراكية، لكنه رأى الأمور على واقعيتها، فسار حسبما رأى. حلم بالحب وأحبك، لكن رأى الأمور ستكون أفضل عند نجوى حمدان، فسار إليها، وسيتركها لو رأى طريقا أفضل، كان صادقا مع نفسه عندما أحبك، وهو صادق مع نفسه عندما يسير في طريق نجوى حمدان، وسيكون صادقا إذا ما سار في أي طريق آخر، ولهذا يبدو لك ممزقا، لكنه متسق مع نفسه، وغير ممزق، في البداية كنت أراه ممزقا ما بين النسبي والمطلق، لكنني أعرف الآن أنه ممزق بين نسبي ونسبي فقط، وهذا ليس تمزقا، هذه رغبات. يوسف لم ير فيك فكرة الحب أو حلمه،

بل رأى فيك مجرد امرأة، امرأة جميلة، مثقفة، مخلصة له ومناسبة، وهذا هو المهم، وعندما رأى نسبي نجوى حمدان الأفضل والأكثر مناسبة سار معها.. هذه خطورة النسبي... دائما كان يسخر مني لأنني فضلت الكتابة، فضلت أن أدرس اللغة الإنكليزية، وكان مجال الطب بل والدراسة في أوروبا مفتوحا أمامي، فأنا طالب متفوق ومن أسرة غنية، وهو من أسرة فقيرة. كان يقول لي عندما يرى تقشفي وخياراتي: أنت أبله.. الله يعطي الحمص لمن لا أضراس له.. بل كان يسألني دائما عندما يرى مقالة لي وقتما بدأت النشر، وكنا ما نزال طلابا يوسف وأنا في الجامعة:

ــ كم سيعطونك؟ ما مردود الكتابة في هذه الحياة؟!

بالنسبة لي جريت مع مطلقاتي.. وما أزال أجري، وربما سأظل أجري، وربما صداقتي لك هي إحدى مطلقاتي.. هل تعرفين لماذا أريدك صديقة، لماذا أنا معجب بك.. ببساطة لأنك أحببت يوسف بالطريقة التي أحببته بها، ربما حسب مصطلحاتي: أنت أحببت يوسف كمطلق.. وربما لهذا أخفقت معه وربما تخليت أنت عن مطلقك، لكني لن أتخلى .. هل تعبت من محاضرتي؟!

هكذا أنهى مازن عبد الحميد كلامه الجدي بالسخرية من نفسه.

الآن أتذكر:

مرة سألت مازن عبد الحميد

ــ ماذا تحب في هذه الحياة؟!

أجاب:

ـــ الكتابة والكتب.

وعندما سألته: لماذا؟ أجاب:

ـــ لأنها تجعلني أفهم نفسي حتى عندما لا أفهمها، أفهم أنها هكذا، غير مفهومة.. أحيانا تجعلني أفهم العالم. أنها عبوري القصير، توهجي اللامع في العدم.

قبل أن أعرف مازن عبد الحميد، كنت أظن أن الكتابة مهنة، فأنا صحفية، ومعه عرفت، ربما الآن، وأنا أتذكر وأكتب، أن الكتابة فهم وحب، معرفة وعلاج، وأعرف تماما أنني لو قلت هذا لمازن عبد الحميد لأجابني:

ـــ لكن لا تنسي كذلك أنها قد تكون وسيلة، أو تقنية، وسيلة للحجب والهروب، تقنية للتعمية.. حتى في الكتابة التي نحاولها.. أي الكتابة الصادقة، أو التي نريدها أن تكون صادقة.

الآن أعيد تذكر مازن عبد الحميد وهو يقول لي:

اكتبي يا رويدا.. اذهبي وحدك إلى كسب، سأوصي بك أصحاب النزل.. إذهبي وتجولي في الغابة، راقبي حياة بسطاء الناس، راقبي بساطة الحياة.. راقبي الأشجار والعصافير والهواء، راقبي المطر والشمس والقمر والحيوانات.. تجولي في الغابات أو على البحر، واسمعي كل الأصوات، وتنسمي كل الروائح، تمتعي بكل الألوان وكل الأوقات.. واكتبي، اسفحي آثامك ودمك، عيوبك وفضائلك، حقيقتك وأقنعتك، براءتك، اسفحيها كلها على الورق.. اكتبي حتى تتعبي، وقتها سترين الحياة ونفسك

والناس.. سترين الحادث الفاجع بشكل أعمق، وربما أفضل..
وقتها ربما تفهمين يوسف وديمة ونجوى، وقتها ربما تغفرين للبشر
دروبهم التي ساروا فيها، وقتها ربما تفهميني أنا.. وقتها ربما
ستفهمين الأمور التي لم أفهمها، وقتها ربما تفهمين أنني لست
أحمق لأني أتحدث عن المطلقات، أتحدث عن الشمس والمطر
والريح والشجر، مثلما أتحدث عن العدالة والحب والإنسان
والجمال.. ربما عندها ستدركين أنت أنني لم أكن أحمق عندما
اخترت طريق الكتابة، اكتبي، فربما تغفرين لنفسك ولي وللبشر
كل الحماقات والأوجاع والآلام التي نسببها لبعضنا بعضا.

الآن أتذكر:

أتذكر أقوال نجوى حمدان كما نقلها لي يوسف في بدء
تعرفه عليها، وقبل أن تنقطع علاقتنا بسببها:

ـــ كل الرجال حقيرون، تافهون.. مراؤون يريدون من
المرأة ما عندها، يريدون مصالحهم ومتعهم فقط.. لكنك لست
هكذا يا يوسف. هكذا قالت نجوى حمدان، كما نقل لي يوسف،
أذكر أني قلت ليوسف يومها محاولة أن أكون حكيمة:

ـــ ألا ترى معي أن كلامها يمكن أن يعني أنها تريد إقامة
علاقة معك.. إنها تثيرك أنت المختلف عن باقي البشر لتقيم معها
علاقة، ومن ثم تثبت لك ما تقوله، أنت الذي تقول إنك

عارضت رأيها، وقلت لها بأنك تحب فتاة أخرى وليس لك من مصلحة في هذا الحب إلا الحب؟!

يومها أجابني يوسف بجفاء:

ــ يكفي فلسفة وادعاء معرفة علم النفس.

والآن أتذكر، أتذكر وأعرف أنني لم أكن مخطئة وأن علم النفس قريب جدا من الصحة، وأن نجوى حمدان كانت في بداية طريقها لإغواء يوسف، لإفساده، لإفساد علاقتنا، الآن أعرف أن نجوى حمدان كانت تحاول الهرب من نفسها ومن علاقة لا تريد استمرارها، لتصل إلى علاقة أخرى تبدو لها في متناول اليد. أذكر أني يومها هونت عليك يا يوسف وقلت:

ــ يوسف لا تؤاخذني،، من يدري،، ربما تكون نجوى حمدان إمرأة فظة في الظاهر، لكنها طيبة في الداخل. ربما وجدت فيك الشخص الذي ترتاح وتفضي إليه بأفكارها وبآلامها، فكلامها هذا هو كلام إمرأة متألمة. ربما أنت الشخص الذي فتح أعماقها، ربما كانت تحاول أن تتحرش بك، وتلهو بك أو معك، في البداية، لكن الأمر انقلب إلى جد... تماما مثل قصة تشيكوف «السيدة صاحبة الكلب» فثمة في هذه القصة رجل يحاول أن يلهو عابثا مع إمرأة ولكن عبثه ينقلب في النهاية إلى حب جدي.

يومها تابع فظاظته في الجواب:

ــ بلا قصص، بلا فلسفة وتحليل أجوف.

أجبتك يا يوسف يومها:

ـــ لكن ما رأيك بدكتورة تقول: الرجال حقيرون وخونة؟!
وماذا تقصد عندما تقول: أنت لست منهم؛ ما رأيك أن يقـــول
رجل: كل النساء بغايا؟! هل ترضى هذا يا يوسف؟!
انفلت يوسف غاضبا ومدافعا، بل ومسوغا:
ـــ كانت وقتها غاضبة من زوجها الذي لا تعيش معـــه..
وربما هي زلة لسان
وقتها قلت لك يا يوسف:
ـــ زلات اللسان تقول الحقيقة
أنت قلت:
ـــ أنت لا تملين من فرويدك هذا.. هذه معلومات تلاميـــذ
الجامعة وطريقتهم في إظهار معلوماهم.
وقتها قلت لك مباشرة:
ـــ أنت تحبها يا يوسف
وكنت أظن أنك ستنفعل، وستغضب أكثر، عندما قلت لك
هذا، لكنك هدأت فجأة وبردت وأجبت بعد تردد:
ـــ لا.. لا.. لا أحبها
أجبت: لا أحبها، وكأنك تقول: نعم أحبـــها، وعندمـــا
سألتك مداعبة
ـــ من تحب إذن؟!
هززت رأسك وقلت:
ـــ لا أعرف
صمت فترة يا يوسف، ونظرت في غير اتجاهي وقلت لي:

إغلي فنجان قهوة.

الآن أفكر:

آه يا يوسف لقد هزمتني، هزمتني بطريقة موتـــك؛ هكـــذا مصادفة.. كنت أريد أن أهزمك، ولو بعد سنوات من فراقك أن أهزمك أنا، لا القدر، ولا المصادفة، ولا حادث سـير عـــارض، كنت أريد أن أهزمك في الحياة وليس في الموت، لقـــد هزمـــني موتك أكثر مما هزمتني أنت في الحياة. هزمني حـــادث الســيارة العارض مثلما هزمك

إني أتذكر

أتذكر وأفكر لأوضح الأمور لنفسي، أكتب لا ليقرأني الناس مثل مازن عبد الحميد، أريد أن أفهم فاجعة الســيارة، أريــد أن أفهم لماذا يقتل أربعة أشخاص ويعطب خامس أبد الدهر، أريد أن أفهم نجوى حمدان ويوسف وديمة، ومازن عبد الحميد، فربما مـــن خلالهم أفهم نفسي، أفهم تاريخي، وربما أرى مســـتقبلي، أفـــهم معنى حياتي، إن كان للحياة معنى، أريد أن أفهم نجوى حمدان التي لم أرها إلا مرة واحدة، وبشكل عابر في الطريق.

الآن أتذكر:

مرة كنت ماشية في الطريق مع يوســـف، وعنـــد البنـــك المركزي رأينا إمرأة مع طفلين في حوالي في الخامسة والســـابعة، وقف معها يوسف، وتركني أتابع مسيري بضع خطوات، دون أن يقدمني إليها، بعد حوالي دقيقة عاد إلي وقال: هذه هي الدكتــورة نجوى حمدان.. معي في المستشفى.

كانت أول مرة أسمع فيها باسمها، وكان يوسف قد بدأ العمل في المستشفى منذ شهر، فقلت له: ولماذا لم تعرفني عليها؟!

قال نسيت.. لقاء عابر..

الآن أتذكر، أتذكر وأخمن لماذا لم يقدمني إليها، والآن أتذكر أيضا:

مرة قلت ليوسف، بعد أن لمح لي إلى أن نجوى حمدان ربما تكون معجبة به:

ــ قل لها إنك تحب فتاة أخرى

أجابني بأنه قال لها، وأنها غير مصدقة، وربما تعتبره يتهرب، بل إنها تمازحه أحيانا قائلة:

ــ كيف حال صاحبتك؟

قلت:

ــ أهكذا إذن.. أنا صاحبتك؟!

الآن أتذكر وأتندم، أتندم لأني لم أقل ليوسف وقتها:

إخرج من بيتي وحياتي إلى الأبد، اخرج يا دكتور يوسف واذهب إلى صاحبتك الحقيقية.

آه إلى أي مستنقع قدتني معك يا يوسف؟! وإلى أي هاوية قادتك نجوى حمدان

أتذكر وأكتب، أتذكر وأحاول أن أفهم نجوى حمدان، فربما كان معها حق، فلو عاملني يوسف باحترام في غيابي، وأمامها، لأضطرت أن تعاملني بالاحترام ذاته، ربما كان يوسف هو الذي أوحى لها أنني «صاحبته» وربما معها حق أنها لم تحترمني في غيابي، أنا العشيقة السرية ليوسف كما قد تكون فهمت من يوسف، معك حق يا نجوى وأنا أريد أن أفهمك، أفهم نجوى حمدان، فلأحاول التوغل في ذاكرتي أكثر، لأحاول تذكر أحاديث مازن عبد الحميد عنها. مرة حدثني مازن وقال:

ـ لا أريد أن أدخل من باب خلفي، أو باب موارب، لا أحب أن ألمح، أو أن أومئ، أعرف علاقتك بيوسف وأعرف أنها منتهية على الرغم من أنك تكابرين، اسمعي يا رويدا، إنني أعرف يوسف تماما، يوسف سار في طريق نجوى حمدان، أنا لا أشي ولا أدق الأسافين، أنت تعرفين ذلك، لكنك ترفضين التصديق. الناس كلها تعرف علاقة يوسف بنجوى، وأنه أصبح شريكا في المستشفى لا مجرد طبيب، أو رئيس قسم الجراحة، الجميع، أقصد دائرتهم التي لا تعرفينها وأعرفها جيدا، فأنا واحد منهم، تاريخيا على الأقل، يدعوهم إلى السهرات والحفلات، بل والعطل الأسبوعية معا في بلودان وطرطوس. الناس تعرف أن هناك علاقة غير معلنة بين يوسف ونجوى غطيت باسم الشراكة في المستشفى، لماذا؟ السبب بسيط، فنجوى لا تريد طلاقا رسميا من زوجها، وتقول إن ذلك ليس في مصلحة الأولاد... أنت حكيت لي يا رويدا بالتفصيل والأسماء عن حياتك وعلاقاتك بيوسف وبغيره،

قبله وبعده، لكن أتى دوري الآن لأحكي لك بصراحة عن نفسي، عن حياتي وعلاقاتي، بالنسبة لديمة قلت لي بأنها حكت لك كل شيء، لكن سأحكي لك عن إمرأة أخرى، سأقول لك من هي المرأة التي قلت لك ذات يوم عندما حدثتني عن خذلان يوسف لك. أتذكرين أني قلت لك: أنا أفهمك وأفهم الخذلان في الحياة والحب، فقد خذلتني إمرأة أنا أيضا، هل تعرفين من هي هذه المرأة؟!

هي نجوى حمدان، فأنا أيضا أحببت نجوى حمدان، وفي بيتي تعرفت نجوى حمدان على يوسف عبد النور.

أذكر أن مازن عبد الحميد صمت برهة ثم تابع:

لا تتفاجئي، فالعالم بقدر ما هو واسع هو ضيق، أحيانا أحس أن كل البشرية وأننا نحن، إنما نعيش في غرفة ضيقة واحدة، لقد أحببت نجوى حمدان مدة عامين، وكنت شبه عائش معها، تماما مثلما يعيش معها يوسف عبد النور الآن، وكانت تقول لي إنها منفصلة عمليا عن زوجها التاجر المسافر، أكثر الأحيان في أوروبا، وأنها تنتظر مدة ليكبر الأطفال ثم تحصل على الطلاق الرسمي، ثم نتزوج هي وأنا، أما لماذا انفصلنا فللأسباب التالية يا عزيزتي:

أولا لأنها ماطلتني كثيرا، وأنا كنت أريد الاستقرار معها لأني أحببتها، ولأني سئمت حياة الوحدة والتجول بين النساء، وثانيا، وربما هو الأهم لأنها أجهضت جنينها بعد أن حملت مني، وكان رأيي أن تحتفظ بالطفل، وأن تعلن طلاقها من زوجها

وزواجها بي رسميا، لكنها قالت إن لديها طفلين ولا تريد لهما ثالثا، خاصة من أب غير أبيهما، لا تريد لهما العقد والمشاكل بأي شكل ومن أي نوع، ونسيت أنني بلا أطفال، وثالثا، وهذا محتمل جدا، أنها ملت مني بعد أن تعرفت على يوسف، ووجدت فيه رفيقا وزميلا وطبيبا يمكنه أن يساعدها في عملها في إدارة المستشفى، فالطبيب أفضل من مدرس اللغة الإنكليزية، حتى ولو كان هذا المدرس كاتب روايات محترم، لكن ليس لديه الاستعداد حتى لتعلم قيادة السيارة، أو اقتناءها، ورابعا، وهذا شبه مؤكد أيضا:أنني لا أعرف الحقيقة يا رويدا، ربما أحبتني حقا، وربما أرادت ملء فراغها النفسي بعد انفصالها العملي عن زوجها الغائب أكثر الوقت، وربما عرفت أخيرا أنني لا يمكن أن أغرى بتغيير نمط مطلقاتي وحياتي، أو أن أستسلم لبيت وسيارة، لبيت في بلودان وشاليه في طرطوس، فكلها تحت تصرفي، كما تعرفين، وكلها لا تعنيني، وربما لهذا قالت لي مرة: أعترف يا مازن أنني لم أستطع تغييرك.. أقصد تحسينك، وأنا أسألك يا رويدا: لماذا يريد الناس تغيير بعضهم بعضا، أليس اختلاف الناس هو ما يعطي هذه الحياة جمالها وتنوعها؟

صمت فترة ثم تابع:

أعرف أنك تريدين أن تسأليني: هل ما زلت أحبها؟ لا أدري، ربما، نعم فالقلب الذي أحب لا يستطيع أن يكره، لقد ظللنا حتى إلى ما قبل ستة أشهر نلتقي، كلما اشتد عليها زمانها كنا نلتقي، تأتي إلى بيتي، تعبث بكتبي وأسطواناتي، تضحك،

تبكي تشرب قهوة ونبيذا، تحدثني عن مشكلاتها وعلاقتها مع يوسف، كانت تشعر دائما أن لها دالة علي، كانت تقول لي:

ـ مهما حدث عدني أن تظل صديقي، أن يظل هذا البيت تحت تصرفي، ففيه عشت أجمل أيامي، ثم تشتمني وتقول لي:

ـ يا مغوي النساء، أغويت ديمة عبد النور، وأغويتني، ويوسف قال لي بأنك تحاول إغواء صاحبته السابقة، مهما كانت الأحداث عدني أن تظل صديقي، أنت يا مازن أول إنسان جعلني اشعر بأنوثتي.

سألت مازن عبد الحميد عما حدث بعد ذلك فأجاب:

ـ منذ ستة أشهر قررت أن أقطع كل علاقة بها، أحسست أنها صارت مربكة لي وما عادت تضيف شيئا إلى فهمي لها ولنوعيتها وللحياة. استيقظت قساوتي الدفينة، سئمت أن أكون جدار مبكاها، ولكنني أشكرها لأنها أعطتني شيئا ثمينا.. أعطتني موضوع رواية.

سألت مازن عبد الحميد:

ـ هل كتبت رواية عن نجوى حمدان؟!

أجاب

ـ لا، لم أكتب هذه الرواية، لكني سأكتبها. إنني أفكر فيها يوميا، كلها جاهزة في ذهني: أحداثها، شبكة علاقاتها، شخصياتها، وينقصني شيء واحد هو: النهاية. ينقصني ما يربط، ما يلحم بين شخصياتها وأفكارها وشبكة علاقاتها، ويتجه بها إلى النهاية وأنا أنتظر أن يلهمني الله نهاية موفقة، ولهذا أنا أنتظر الحياة،

كيف ستضع نهاية لروايتي التي ما زالت في مخيلتي، كيف ستوحي لي بنهاية. أنتظر ماذا سيحدث مع نجوى حمدان.. صحيح أنني لن أكتب النهاية كما ستحدث في الواقع، فأنا لا أكتب تاريخا، أنا أحاول أن أكتب رواية، والرواية ليست تاريخا على الرغم من أنها تتضمن التاريخ، الرواية ليست واقعا، على الرغم من أنها تتضمن الواقع، ليست الرواية صورة عن الواقع، الرواية هي المخيلة، لكن معرفة الوقائع جزء أساسي من طريقة إنهاء الرواية، فكل شبكة الأحداث، والشخصيات، والأحداث، يجب أن تسير نحو النهاية في الرواية، النهاية ربما تعيد ترتيب الأحداث وشبكة العلاقات كلها في مخيلتي. النهاية ربما تعيد فهمنا كليا للحدث، تعيد فهمنا للحياة، للرواية. إنني أعيش هذه الحياة كأنها رواية، وأكتب الرواية كأنها حياة أعيشها.

أتذكر الآن أنه صمت بعد حديثه هذا فترة ثم قال ضاحكا:

ــ كما ترين بدأنا الحديث عن نجوى حمدان وأنهيناه عن أصول الفن الروائي وتقنياته، فإلى أين ستصل الأمور بنجوى حمدان وبي وبك، بيوسف وديمة، وإلى أين ستصل روايتي؟ كيف ستنتهي هذه الرواية؟ هذا ما لم أستطع حله فنيا، وأنا أتركه للحياة، أتركه للمخيلة، أتركه للزمن، فالزمن خير كاشف. الزمن هو الذي يكثف ويكشف الأحداث ويلاشيها. إنني اطمح إلى كتابة رواية فيها كثافة القصة القصيرة وانفساح مدى الرواية، اتساع وانفتاح أفق الرواية وكثافة القصة القصيرة، تركيزها وشاعريتها. هل هذا مستحيل؟!

الآن أتذكر:

بعد أن وقع الحادث المفجع، سألت مازن عبد الحميد:

ــ ألم تزر نجوى حمدان في المستشفى.

أجابني:

ــ لم أزرها، ولن أزورها، آسف وحزين أكثر مما تصورين لما حدث، ونجوى حمدان نفسها تعرف أنني لن أزورها مهما حدث، هي تعرف قساوتي مثلما تعرف دموعي، لست شامتا، ولن أمارس شعور الشفقة، فقد مارسته مع نجوى حمدان بما يكفي.. ويزيد.. لو كان هناك مجال أن نلتقي مرة أخرى، ما كنا افترقنا.. أنا لست من الذين ينظرون إلى الوراء مهما كان اللحن جميلا أو مؤسيا.. ليكن الله في عونها.. أما أنا فلست قادرا على ذلك. لست حاقدا عليها، ولكني مرة أخرى أقول لك، لن أنظر إلى الوراء، حتى ولو كان الفردوس هناك في الماضي، في الحب والحياة أنا كذلك، وفي الفكر، لقد تعلمت الدرس جيدا من حكاية أورفيوس، ومن عوليس الذي صب الشمع في آذان رجاله حتى لا يسمعوا غناء الجنيات الساحر

إني أتذكر: أتذكر وأكتب، أتذكر عامدة، وأدخل منطقة الذاكرة آملة أن أصل منها إلى منطقة الوعي، ومن ثم أدلف إلى منطقة اللاوعي، ولدي الشجاعة في هذه الفترة بالذات لأكشف كل شيء عن نفسي ولها، فلعل ذلك يساعدني في فهم حقيقة ما حدث وما يحدث، حقيقة حادث السيارة، حادث يموت فيه أربعة أشخاص ويعطب خامس أبد الحياة، إنني أتذكر وأكتب لأجلو

نفسي وحقيقتي، أكتب كما نصحني مازن عبد الحميد، أكتب على دفتر من مئة وخمسين صفحة أهداني إياه مازن عبد الحميد وقد كتب على الورقة الأولى فيه عبارة سبينوزا التالية فقط:

«إذا وقعت واقعة عظيمة، لا تضحك، لا تبك، ولكن فكر»

وها أنذا أفكر، أفكر بيوسف ومازن ونجوى وديمة،أفكر كيف تبادلنا المواقع والأمكنة، الكلمات والعلاقات، وكأننا نعيش في غرفة ضيقة، ولسنا في أرض الله الواسعة: ها أنذا أفكر ساخرة هكذا:

نجوى حمدان تأخذ مكان رويدا الرفاعي مع يوسف، ويوسف يأخذ مكان مازن عبد الحميد عند نجوى حمدان، ونجوى حمدان تأخذ مكان ديمة عبد النور، وديمة عبد النور تنسحب خارج الغرفة وكأنها تعطي مكانها لرويدا الرفاعي، ورويدا الرفاعي تترك مكانها لنجوى حمدان، وتأخذ مكان ديمة أخت يوسف، ويوسف يترك مكانه لمازن، ومازن يترك مكانه ليوسف، ولا أدري من سيأخذ مكان من في هذه اللعبة، كأننا نلعب لعبة الكراسي الموسيقية التي تعلمناها في المدرسة الابتدائية.

الآن أفكر:

ليست الحياة أكثر من تبادل أدوار ومواقع؛ قلت لمازن الكلام العنيف الذي قاله لي يوسف، وقال مازن شبيهه لنجوى، ونجوى أسمعت مازن أقسى الكلام، وكلنا تبادلنا الكلام والأدوار والمواقع نفسها فيما يبدو، كلنا كنا مرايا بعضنا بعضا، تعبت من

لعبة المرايا هذه، دخت، وسأنام، ولكني قبل أن أترك الكتابة أسأل نفسي:

لماذا لا أتذكر إلا الأشياء الرديئة في علاقتي مع يوسف؟ لماذا لا أتذكر دماثته ولطفه وصدقه وحبه الغامر في المرحلة الأولى من علاقتنا؟ لا أعرف، لكن لماذا لا أعرف؟

الآن أفكر:

كنت في البداية أظن أن الحب، لا يصدأ، كالذهب، والآن صرت أعرف أن الحب يصدأ، على مر الزمن، مثل الحديد. لماذا تتحول سعادة الحب إلى ألم؟

إني أتذكر:

أتذكر وأحاول أن أفهم، أن أفهم ما الذي جذب يوسف إلى نجوى؟! ما الذي جذب نجوى إلى مازن؟! ما الذي يجذب الناس إلى بعضهم بعضا؟! ما الذي يجذب النساء إلى الرجال؟! وما الذي يجذب الرجال إلى النساء؟ ما الذي جذب نجوى إلى زوجها الأول؟ ماذا يعني الرجال لهذه الإنسانة؟ يبدو أن فيها شيئا ما، شيئا جاذبا وقاهرا، وربما قاتلا.. انفصلت عن زوجها، وأجهضت جنينها، ومعها قتل يوسف.. يوسف في البداية حدثني عنها بلا مبالاة، ثم باستنكار وبعدها أحبها، ثم شاركها في مستشفاها، بل وعاش معها على الطريقة التي عاشتها مع مازن عبد الحميد، وعلى الطريقة نفسها التي عاشها يوسف معي، زواج

أمام الضمير، معايشة، ما الذي جذب يوسف إليها وجعله يتركني. ما الذي جعلها تترك مازن، مع الذي يجعل الناس يفترقون؟! يسير أن أقول أنه المال، وخاصة بالنسبة ليوسف الآتي من أوضاع فقيرة .. لكن هذا لا يقنعني، هل يكون السبب هو السعي وراء النسبي بدل المطلق، كما يمكن لمازن عبد الحميد أن يقول؟ لكن في الأمر ما هو أعمق من ذلك فيما يبدو لي، وربما جمال نجوى، ربما جاذبيتها، ربما جرأتها وغرابتها هو ما يجذب الرجال إليها ، بينما أقتنع أنا بدور الصحفية الجريئة، ما هو هذا الشيء الذي يجذب الرجال إلى جاذبيتها فتأخذهم معها إلى هاويتها؟! ولكن يعنيني أنا يوسف، يوسف الذي أحببته، يوسف الذي عرفته جيدا، يوسف الذي ما زلت غير مصدقة أنه مات، مات في الحياة، ومات في قلبي. ترى هل أستطيع فيما تبقى أن أحب أحدا بالصدق أو بالطريقة التي أحببتك بها يا يوسف؟! ربما يكون يسيرا أن تفسر قصة يوسف، بل وحادثة السيارة عموما على أنها قصة، أو رمز لقصة صعود اجتماعي مخفقة، قصة رمزية تنتهي بكارثة معبرة، كما في الكتب والروايات والأفلام الأخلاقية، والأيسر على المتدين أن يفسر كارثة السيارة على أنها عقاب إلهي، عظة ونذير.. ، لكني لا أؤمن بهذا، وأعتقد أن لا أحد يستحق العقاب في هذه الحياة، لا أحد في هذه الحياة يستحق الألم والشقاء. كل هذه التفسيرات لا ترضي، ربما بعضها يلامس جانب الحقيقة، ربما لا يرضيني إلا التفسير الذي فكرت به هذه الصباح وأنا أتجول في الغابة، وتفسيري الخاص يقول التالي:

ولأحاول أن أكتب ببطء وهدوء حتى أعبر بوضوح لنفسي عن فكرتي:

الحياة مجموعة تقاطعات ومصادفات، ونحن في كل مرحلة من حياتنا، نتقاطع، أو نصادف شخصا، أو حدثا، حياة أو موتا، وبطريقة عشوائية وعبثية، بعض هذه التقاطعات التصادمية قد تكون سعيدة، وبعضها قد تكون قاتلة، وربما كانت المصادفة هي خطأ الطبيعة السحري، أو الخطأ الذي يضع الأمور في نصابها، ويعطيها معناها ودلالاتها، وإلا كيف تقاطعنا وتشابكنا ثم افترقنا، واجتمعنا، أنا ويوسف ونجوى وديمة ومازن؟!

الآن أتذكر هذه الحادثة التي رواها لي مازن:

مرة قسوت مع نجوى حمدان في الحديث بعد أن أجهضت الجنين دون استشارتي، بل وضد رأيي، تضايقت من نفسي لأنني تفوهت بكلام لا أريده أن يخرج من فمي، فقد استخدمت بعض الكلمات القاسية والمهينة مثل: أنت مجرمة.. أنت قاتلة.. أنت بغي.. ندمت وقررت الاعتذار، واتصلت بها وجلسنا في أحد المقاهي وقلت لها، ونحن نشرب قهوة:

ــ سامحيني عن كل ما قلت.. انسي ما حصل، عفا الله عما مضى، ألا نعفو نحن؟

أجابت

ــ أنا أستطيع أن أسامحك، وأنا أسامحك، أستطيع أن أعفو وأستطيع أن أنسى.. لكن قل لي أنت... هل تستطيع أن تسامحني

على ما فعلت.. هل تستطيع أن تنسى؟؟ أنا قتلت جنينا، أنا خذلتك يا مازن، قتلت حبا. أنا أعرف ما فعلت.

وقتها أجبتها:

ــ سأحاول أن أنسى، سأتناسى.. لكن السماح على ما فعلت هو بيد قوة أخرى.. قوة لا أملكها ولا أؤمن بها، قوة أتمنى لو تكون موجودة لتقيم العدالة في هذا العالم.

الآن، ربما أستطيع أن أقول ليوسف ونجوى حمدان:

ــ لن أنسى.. سأتناسى، أنت أيضا يا يوسف قتلت جنينا، قتلت حبا.. أما الغفران.. أما السماح، فقد فرضهما موتك يا يوسف، وشللك الأبدي يا نجوى..

لكن ماذا عن الجنين الذي أجهض، ماذا عن الأبرياء الذين ماتوا في السيارة؟

الآن أفكر:

لماذا لا أتذكر من علاقتي مع يوسف إلا الأمور المؤسية؟

لماذا لا أتذكر أيام الحب الجميلة، أيام رحلاتنا إلى حلب والجزيرة السورية، إلى لبنان ومعلولا والغوطة، تجوالنا في دمشق القديمة، والمطاعم.. لماذا لا أتذكر إلا مهاتراتنا، وخصوماتنا.. لا أعرف..

لماذا لا أتذكر إلا مواقفي أنا الجيدة معه؟ لماذا لا أتذكر سيئاتي وقبائحي؟ آه تؤلمني ذاكرتي، لا أريد أن أتذكر شيئا، آه لو أنسى وجودي.

إني أتذكر:

أتذكر وأكتب محاولة أن أجلو الأمور لنفسي، فتزداد أموري وأفكاري غموضا وتعقيدا، مازن عبد الحميد قـــال إن الكتابــة المركزة، التذكر المركز يجلو الأمـــور، وأنــا الآن أراه يزيدهــا غموضا. غامرت بالدخول إلى ذاكرتي، آملة الوصول إلى منطقــة اللاوعي والسيطرة عليها لأفهم ما يرقد في أعماقـــها، فكـــانت النتيجة أن اللاوعي جذبني إلى غموضه وتشوشه، إلى دوامتــــه، وأغرقني في وحوله وهاويته، وهكذا ضاعت مني حـــتى بــراءتي ورقتي، وربما سقط قناعي، هكذا جذبتني هاوية اللاوعي مثلمــا جذبت هاوية الموت السيارة ويوسف فيها، يوسف ومعه أربعــة أبرياء. نجوى حمدان نجت من الموت، لكن هل نجت حقا؟ بمــاذا تستطيع أن تفكر بعد اليوم؟!

أنني أتذكر، أتذكر أحاديث مازن ويوسف عـــن نجــوى ولطفها ومبلغ ثقافتها، بل وصمتها أكثر الأحيان وجديتـــها في عملها، بل ورحمتها وتسامحها في مستشـــفاها، مــع المرضــى والمحتاجين، أتذكر كل ذلك فأعجب مما فعلت، ومما قالت، أحيانا أتعجب من هذا التناقض في البشر، وأقول لنفسي إنني ربما كنــت مثلها، أتذكر، وأحلل وأقارن وأحاول أن أفسر، لكني أتعجب من عجزي عن التفسير. أتذكر حادث السيارة، فأتألم، ثم أتناســـى وأقول لنفسي، ما الغرابة؟

سيارة فيها عائلة متوسطة، عائلة وأصدقاؤها آتية من عطلة نهاية الأسبوع على ساحل طرطوس، تتعرض لحادث على الطريق بين طرطوس وحمص، فيقتل أربعة أشخاص ويعطب الخامس.. هذا يحدث أسبوعيا تقريبا، ما الغرابة في الأمر؟! لكن هذا خبر في جريدة، خبر أصم لا يقول شيئا، عن خفايا الموت والحياة والبشر، لا يقول شيئا عن البشر الذين ماتوا، البشر الذين عاشوا قبل الحادث.. لماذا عاشوا، ولماذا ماتوا؟ كم سعدوا وكم تعذبوا، وكم فكروا وبنوا الأحلام والمشاريع، كم تعذبوا عندما، أو بعدما وقع حادث السيارة مباشرة؟! يا إلهي أكاد أرتجف عندما أتذكر ما رواه لي مازن من أن الجثث والأجساد كومت في صندوق سيارة شاحنة صغيرة ونقلت إلى مستشفى طرطوس، وكأنها صناديق بضائع، كأنها ذبائح. يا رب ارحم. مئات الأشخاص يفعلون ما فعل يوسف، يطمحون، يصعدون مثلما طمح وصعد، فلماذا يوسف وحده يموت!؟ إنني أفكر، أفكر بك يا يوسف، أهكذا تنتهي يا يوسف، يا ديمة.. أهكذا تنتهون أهكذا ننتهي جميعا: جثثا مكومة في صناديق شاحنات، وحتى أنت يا نجوى، حتى أنت يا نجوى أصارحك إنني لم أشعر ذات يوم إنني غريمتك، أو أنك غريمتي.. ربما لشدة ثقتي بنفسي، أو بيوسف، لست أدري، ربما كنت أعتقد أن مشكلتي هي مع يوسف، وليست معك.. لا أعرف، ربما كان ذلك محاولة غير واعية مني لتصغير شأنك يا نجوى، ربما كان عمى مني. كنت أرفض ما أرى على الرغم من وضوح ما أرى، كنت مطمئنة إلى ذاكرتي وحياتي

المشتركة مع يوسف، حين كان يبني لنفسه حياة وذاكرة أخرى معك، كانت المياه تجري من تحت قدمي، وأنا أشعر ولا أشعر. كنت أرفض أن أصدق أن يوسف الذي أحبني بكل هذا الصدق، أو هكذا اعتقدت، يستطيع تركي والذهاب حتى إلى نجوى حمدان بجمالها وجاذبيتها وغناها، لكننا نتبدل، لكننا نتغير فيما يبدو ونحن نسبح في تيار الزمن الجاري. لكننا حمقى على ما يبدو

الآن أتذكر، كأن المشهد يحدث الآن:

مرة قلت ليوسف:

لماذا تسير في طريق نجوى حمدان؟

أجاب:

ــ أنت قدري وحياتي.. لا تفكري في أمور أخرى

قلت:

ــ لا قدر هناك.. كنت أقول لك أنت مسلمة، في حياتي، أنت شقيق روحي.. الآن بدأت أشك في المسلمات.. في القدر، في الروح، كان قدري أن أصبح مدرسة فلسفة في إدلب، مدينتي، فلقد درست الفلسفة في الجامعة، وعينت مدرسة فلسفة في إدلب، ولكني تركت أهلي وبلدي والتدريس، وأتيت وعشت وحدي لأنني أحببت وقررت أن أغير قدري وأن أكون صحفية.. وها أنذا قد أصبحت صحفية ناجحة، باعترافك واعتراف الجميع.. لكنك تصغرني، تصغر من شأني بمعاملتك لي كمجرد إمرأة، إمرأة عاشقة أو مهانة، أو مهجورة.. أنت تحول علاقتنا إلى جحيم، أنت تبتذل علاقتنا.. أنت تحول الصحفية الناجحة

والمحترمة إلى مجرد إمرأة تتقاتل في البيت مع زوجها حول إمـــرأة أخرى.. هذا خطأ يا يوسف.. هذه إهانة لإنسانيتي. هذه إهانـــة وابتذال للحب، للكرامة، لي شخصيا.

لماذا نضيع أجمل سنوات العمر في الخصـــام والمـــهاترة يـــا يوسف؟!

لا أذكر الآن ما قال يوسف بالضبط يومها، لكنني أذكـــر الآن، أو ربما تقفز بي الذاكرة إلى أحاديث أخرى ليوسف، أذكـر أنه، وقبل تعرفه إلى نجوى حمدان، كان يحدثـــني عـــن حلمــه بمستشفى يديره، وسيارة وبيت في بلودان، وشاليه في اللاذقية، بل يحدثني عن أحلامه في زيارة باريس وسويسرا، هو الذي تخـــرج طبيبا و لم يغادر أبعد من دمشق، كما كان يقـــول لي. كنـــت أسخر من أحلامه، وأحيانا أشاركه فيها، لكني كنـــت مكتفيـــة بيوسف، يوسف كما هو، يوسف دون مستشفى، ودون بيـــوت راحة، ودون سيارة، يوسف الطيب، الطبيب الوســـيم النـــاجح العاشق، يوسف كما عرفته في السنوات الأولى من علاقتنـــا، أو ربما هو يوسف الذي لم أعرفه، فشخصية يوسف لم تكـــن قـــد انكشفت لي، أو ربما لنفسه، بعد، فمن أنت يا يوسف، هل أنـــت شخصيتك الأولى، أم أنت شخصيتك الثانية؟؟

الآن أفكر بأن الإنسان ينمو ويتوضح ويتغير وينكشف عـــبر الزمن، ينكشف وينمو ويتفتح كما يحصل للورود والأشـــجار في الزمن، في الطبيعة، ينمو ويتفتح وينكشـــف، ويمـــوت، وبموتـــه

يكتمل، ينغلق إلى الأبد، بموتها تنكشف الشخصية، أو تلتبس وتغمض إلى الأبد.

الآن أفكر:

ربما أنا هي التي أخفقت في الحفاظ على يوسف، ربما أنا هي التي انكشفت، مع الزمن وفيه، ربما هشاشتي هي التي انكشفت، ربما نجوى حمدان هي التي طبعت يوسف على صورتها، أو كشفت صورته الحقيقية، أو ربما هي التي رسمت صورته الأخرى، ربما نجحت نجوى حمدان في الحفر والكشف أعمق مني، ومع انكشاف صورة يوسف انكشفت شخصيتي أنا أيضا، ألسنا يوسف وأنا، وبل ونحن البشر جميعا، ألسنا مرايا بعضنا بعضا؟!

أتذكر الآن آخر حديث لي مع يوسف عن علاقتنا، وكانت علاقته مع نجوى حمدان قد صارت حقيقة واقعة، وقد انكشفت للجميع، مع أنني كنت ما أزال أحاول التغاضي، أتذكر أنني سألت يوسف:

ـــ يوسف.. هل تحبني؟

أجاب فورا:

ـــ كنت أحبك

قلت:

ـــ أعرف هذا الجواب.. لكن جاوبني بصراحة، وعلى قدر سؤالي.. أريد أن أسمعها منك: نعم أم لا.

أجاب بعد صمت:

ـ لا

لا أدري لماذا شعرت وقتها بالراحة، شعرت أني أصبحت حرة. كنت قد تعمدت أن أواجهه بهذا السؤال، وإن كنت شبه متأكدة أنه سيقول: لا. كنت قد تعمدت أن أواجهه بهذه الطريقة حتى أنهي علاقتنا إلى الأبد حتى أحرر نفسي من التزام ضميري، فإذا قال لي «أحبك» فكنت سأقول له بعدها: إقطع علاقتك بنجوى حمدان واترك مستشفاها، وكنت أعرف أنه عاجز عن ذلك، ووقتها أنهي علاقتنا لسبب واضح، أما إذا قال «لا» كما اعتقدت، فسأحمله مسؤولية إنهاء العلاقة، سأريح ضميري وأقول هو الذي ما عاد يحبني، هو الذي سار في طريق نجوى حمدان، هو الذي تخلى. وجوابه أتى كما أردت، جوابه النهائي والحاسم أشعرني بالراحة وقتها، أشعرني أنني اختصرت مسافات وآلاما وصعوبات كثيرة، لكن الذي فاجأني فيما بعد هو قوله:

ـ اسمعي أنا أحب نجوى حمدان.. لا تضغطي علي أكثر.. أتمنى أحيانا أن أموت لأتخلص منك ومنها.. تعرفين كم أحب أهلي، وديمة خصوصا، لكن ليس لي بعد أهلي وديمة غيرك، عديني أن نبقى أصدقاء، وأن نلتقي بين حين وآخر.. نشرب قهوة ونتحدث فقط.. تزوجي وسيكون زوجك صديقي أيا كان.

كان يتكلم بنبرة هادئة ورقيقة، وتبدو واثقة، ولكني كنت أعرف أي ضعف، وأي هشاشة، وأي محاولة لتمثيل الثقة بالنفس، أي فقر روح وجفاف مخيلة، أي انطفاء قلب، كان يخفي وراء هذا الهدوء، وراء هذه الرقة، كنت أعرف أي إنسان، أي

حب، كان يحاول أن يدفن، عامدا، في أعماقه، إني أتذكر كل ذلك، أتذكر أنني كنت أعي كل ذلك وقتها. أتذكر أنني في كل مرة، خلال المرحلة الأخيرة من علاقتنا، كنا نخرج فيها معا، أو يزورني أو أزوره في البيت، كنا نتخاصم، وكنت في كل مرة أقول لنفسي، سأقول له في نهاية الحديث أن يقطع علاقته بي إلى الأبد، ألا يراني، ألا يتصل بي، ولكني في اللحظة الأخيرة لا أقولها، على الرغم من أنني كنت أذهب إليه أو أدعوه، وفي نيتي أن أبلغه قطع العلاقة، اذكر أنني مرة قلت له:

ـــ لماذا تأتي إلى بيتي؟

أجاب ساهما وكأن السؤال لم يثره كما أردت، أو كأنه لم يفهم الطلب الخفي في سؤالي في ألا يأتي إلي:

ـــ لأنه ليس هناك مكان في الدنيا أذهب إليه

وقتها شعرت أنني براءته المفقودة مع نجوى حمدان ومستشفاها، مع هذه الحياة وفيها، وقتها شعرت أنني حنينه إلى ما فقد، أنني الشخص الذي يستعيد فيه وعنده، نفسه، وقتها شعرت أن يوسف ليس مجرد خائن لموهبته، وبائع لنفسه، وقتها شعرت أنني ضميره الذي لم يمت، وقتها شعرت بالشفقة عليه، وقتها فكرت هكذا:

لأمثل هذا الدور حتى النهاية، لأكن جدار مبكاه، ليستمر ألمي في صمت، ليكن صمتي هو دلالة رفضي لما يفعل،

ـــ الآن أتذكر: لقد كان مازن عبد الحميد جدار مبكى نجوى حمدان ـــ

ولأكن حضور ضميرك الغائب يا يوسف، لتأت إلى عندي، كل واشرب الشاي والنبيذ والقهوة، ماذا يضيرني ذلك، مرة في الأسبوع، ماذا يضيرني في ذلك؟! لكنني كنت مخطئة يا يوسف فيما يبدو، فما من شيء يقتل الحب أو الرحمة، أو الاحترام، مثل شعور الشفقة، لقد أخطأت فقد كنت، ودون أن أشعر، أحرك الجمر في الرماد، كنت أتغاضى وأتعامى عن نفسي وهواها، كما سبق وتغاضيت وتعاميت عن علاقتك بنجوى حمدان. كنت أقتل حبنا وصداقتنا عندما سمحت لنفسي أن تشعر تجاهك بالشفقة، كنت أراهن على أمور، أو في أمور، لا يراهن عليها أو فيها، كنت ألعب بالنار التي أحرقت الأخضر واليابس. كان يجب أن أكون مخلصة لقناعاتي لفهمي، لعقلي، لرؤيتي. لقد خنت نفسي مرات عديدة يا يوسف، مرة عندما تغاضيت عن علاقتك بنجوى حمدان في بدايتها، ومرة عندما تغاضيت عن استمرار اتصالك، أو علاقتك بي وبنجوى حمدان معا، ومرة، وهي الأدهى، عندما قبلت أن أجهض جنيني لأنك رفضت أن أحتفظ به، كان يجب أن أدرك معنى ذلك خنت نفسي عندما تركت شعور الشفقة عليك يا يوسف يحل مكان شعور الحب لك، فشعور الحب، الصداقة يعني الندية والتكافؤ، أما شعور الشفقة فيعني التعالي، وأن واحدا أدنى من الآخر.

الآن أتذكر: مرة كنا في مطعم السنابل، وكنت قد قررت أن أخبر يوسف أنني حامل، وكنت متشوقة لسماع جوابه، بل وقدرت أن الأمور ستسير على النحو التالي:

سأقول ليوسف أني حامل، فيجيبني بطريقته الضاحكة: ماذا سنسمي الطفل؟! سنطهره ونعمده في يوم واحد، يبدو أنه قد آن أن يلتئم شملنا ونعلن زواجنا. لكن فوجت أن الأمور جرت على غير ما تصورت، فقد أربد وجه يوسف، وقال هذه خدعة منك أن تحملي من وراء ظهري ــ كأني حملت من غيره ــ أنت تورطيني، أجهضي فورا. وفعلا قبلت، وأجهضت الجنين دون رغبتي. الآن أفكر: لأكن نزيهة مع نفسي، لأرى نفسي على حقيقتها. ما الفرق بيني وبين نجوى حمدان، وما الفرق بين نجوى حمدان ويوسف، ما الفرق بيني وبين مازن عبد الحميد، وما الفرق بين مازن عبد الحميد ويوسف عبد النور؟ ما الفرق بين أي شخص وآخر في هذه الحياة؟!

يا رب ارحم: كلنا قتلة، كلنا ضحايا، كلنا قتلة، كلنا مقتولون، كلنا خائنون، وكلنا مخانون، كلنا... كلنا نحدق في وجوه بعضنا فنرى أنفسنا في وجوه الآخرين.

إنني أقشعر من الخوف الآن، لا أستطيع المتابعة..

يا رب ارحم.

ها أنذا أتذكر:

ــ مرة أبديت إعجابي بشريط غنائي لفيروز، فقال لي يوسف سأهديك إياه غدا، وفي الغد لم يحضر الشريط، وبعد أسبوع سألته عن شريط فيروز فقال:

ـ اشتريته، وسمعته معي نجوى حمدان في السيارة، أعجبها وهي تسمعه، ستعيده لي، وأحضره لك .. لكن الشريط بقي عند نجوى حمدان.

إني أتذكر:

إني أتذكر وأحاول أن أفهم ما جرى معي ومع يوسف ونجوى ومازن وديمة، أحاول أن أفهم نجوى حمدان تحديدا، أحس نفسي أني أحبها بطريقة ما فنجوى حمدان قد تكون وجهي الآخر، أحاول أن أفهم نفسي، وأن اكشف لا وعيي ولا شعوري، وإن كان ذلك بطريقة واعية، أي بالتذكر والكتابة.

أتذكر الآن:

مرة كنا جالسين مساء، في مطعم الدمشقية، فجأة نظر إلي يوسف وقال:

ـ رويدا.. أنت تعاملينني ككلب.. أنت تعاملينني بلا مبالاة ككلب، لكني لن أقف على أعتابك.. أنت تتصرفين وكأنني غير موجود.. تتصرفين وكأن لا شيء جمعنا، أو يجمعنا، صمتك يرعبني.. اصرخي في وجهي، اشتميني.. قولي لي اترك نجوى حمدان والمستشفى.. تخلي ولو مرة عن صمتك، كبريائك الزائف.. عن موضوعيتك التمثيلية. اخلعي قناعك الزائف، حدقي في وجهي مباشرة، لماذا تلعبين معي هكذا؟ هل تريدينني أن أذهب مع نجوى حمدان حتى تتهميني بالنذالة.. حتى تذهبي أنت مع شخص آخر مرتاحة البال، مرتاحة الضمير؟

الآن أتذكر: وفعلا شرعت آنذاك في إقامة علاقة مع أحد زملائي في الجريدة، علاقة في الخفاء، ولكنها توازي علاقة يوسف مع نجوى ــ

أكاد أسمع يوسف الآن وهو يتابع كلامه:

ــ أعتقد أنك تريدين إنهاء العلاقة، ولكنك تريدين أن أكون البادئ، لأنك جبانة، لأنك تريدين أن تظهري مخذولة ونقية أمام ضميرك وأمام الناس، تريدين أن تلقي اللوم علي.. تريدين أن تشهري بي وبنجوى حمدان.. تريدين أن تكوني الحسناء، وأنا الوحش.

الآن أفكر: هل كان يوسف يقول الحقيقة دون أن يعرف: يا رب ارحم.. يبدو أنني فكرت في إحدى اللحظات كما قال يوسف، وأكثر من ذلك استجبت لاستلطافات زميلي في الجريدة، على الرغم من أنه متزوج، بل ودعوته إلى البيت، دعوته دون زوجته، ودون طفليه، دعوته وفي نيتي أن أستجيب لاستلطافاته، دعوته ونمت معه.. يا رب ارحم...

ما الفرق بيني وبين نجوى حمدان عندما دعت يوسف إلى بلودان؟!

بدأت في هذه الفترة أهرب من يوسف، أترك البيت في الأوقات التي أتوقع أن يأتي فيها، لأعود وأجد منه رسالة على الطاولة، رسالة عتب وأسى، صرت أسافر خارج دمشق في مهمات صحفية، أو في رحلات مع الأصدقاء، دون أن أخبره أنني مسافرة، كنت لا أرد على الهاتف عندما أتوقع أن المتكلم هو

يوسف،بل صرت أحاول الإيحاء لمن يعرف علاقتنا أن لا علاقة جدية بيننا، وأننا كنا مجرد أصدقاء عاديين، والآن أتذكر:

مرة في بيتي قال لي يوسف:

ـــ رويدا.. لماذا تدفعينني بعيدا.. نحو نجوى.. إنني أتعذب.. أحس أن علاقتنا تنازع.. تموت، وأنت لا تفعلين شيئا.. هل مللنا من بعضنا يا ترى؟

كنت أكتفي بالصمت والبحلقة، أو التشاغل بإعداد الطعام والشراب، كنت أريد لصمتي أن يكون رسالة اتهام، كنت أريد من يوسف شيئا واحدا فقط، أريده أن يفهم، لكن دون أن أقول أنا، كنت أريد أن يأتي هو ذات يوم ويقول لي:

ـــ رويدا.. تركت المستشفى ونجوى حمدان لأجلك.. لكنه لم يقلها، و لم يفعلها، بل كان يزداد غرقا في نجوى حمدان ومشاريعها ونمط حياتها وعلاقاتها، ثم يأتيني في لحظات تعبه، أو لحظات استيقاظ حبه، أو استيقاظ ضميره، أو ما لست أدري، لكنه لم يقل هذه الكلمة التي بقيت عامين أنتظرها، فبقي وأبقاني معه ندور في حلقة مفرغة، نتبادل المشاحنات والاتهامات والإهانات والصمت الثقيل، نمزق بعضنا وكأننا أعداء، أعرف أن يوسف كان ينتظر مني أن أقولها أنا، أن أبادر وأطلب، أن أقوله له:

ـــ يوسف اترك نجوى.. اترك المستشفى، وتعال إلي.

لكني أنا لم أقل ذلك وما كان يمكن لشخصيتي أن تقوله، بل اندفعت في مغامرات موازية لمغامرة يوسف، ربما لأعيد اعتباري

أمام نفسي. ربما لأعوض، أو لأداوي كبريائي الجريح، وربما لهذا بقينا ندور حول بعضنا، وكأننا ننتقم من بعضنا، بالتعالي، بالصمت، بالتجاهل. كانت كلمة واحدة منه كافية لإصلاح الأحوال، وكانت كلمة واحدة مني كافية لإعادة الأمور إلى مجراها، لكننا جبنا عن قولها، لم نستطع، لا يوسف، ولا أنا أن نفعل شيئا، فهل هذا جبر نفسي، أم هو قدر إغريقي؟ أم أنني أبسط الموضوع كثيرا، في حين أن الموضوع أعقد من ذلك بكثير؟! لا أعرف.. لكن يبدو أن هناك جبرا نفسيا في هذه الحياة، وأن هذه الحياة تشبه أحيانا الخط الحديدي، وإذا ما سرت على هذا الخط من أوله، فستصل إلى نهاية محددة سلفا؛ لكن المهارة هي في أن لا تضع نفسك على هذا الخط الحديدي، المهارة تكمن في معرفتك أين ومتى ستبدأ، بل أين ومتى ستقف. المهارة تكمن في اختيار أي خط حديدي تضع عربتك، أو قدرك عليه. ويبدو أننا يوسف وأنا أخفقنا في ذلك.

الآن أفكر، مخلصة لنفسي، أفكر:

هل كان صمتي مع يوسف هو المشجع له؟ هل اعتبره لامبالاة؟

هل كنت حقا من دفع يوسف عبد النور في طريق نجوى حمدان ومشروعاتها، وهل أكون حقا مسؤولة عما حدث، مشاركة فيما حدث، مشاركة في فاجعة السيارة وموت أربعة أشخاص، وعطب خامس أبد الدهر.

هل أنا مشاركة في مسؤولية ما حدث؟!

أنا الآن أحس أني فعلت ذلك

يا رب ارحم

إني أتذكر:

أتذكر وأحاول أن أغوص في أعماق ذاكـــــرتي وعلاقـــتي بيوسف، لعلي أصل إلى القاع، إلى معنى ما حـــــدث، فربمـــا في أعماق لا شعوري يكمن سر ما حدث، لعلي من هناك، مـــــن أعماق لا شعوري أستطيع أن أرى ما كان يكمن خلف تصرفات يوسف وتصرفاتي الظاهرية. إني اتذكر، وليتني أعرفك عن قرب يا نجوى حمدان لأحاول أن أعرف معنى تصرفاتك.

مرة قلت ليوسف:

ــ يوسف أنت حبك مسلمة في حياتي... أنت حقيقتي التي لا أستطيع إثباها، أو نكراها.. ولكني أبني عليها كل شيء.. أنت كما تقولون في المسيحية، صخرة بطرس التيّ أبني عليها كنيستي.. أنت سكني، لباسي، كما يقول القرآن.

وقتها ضاحكا، وعلى طريقته في المزاح، في أوج علاقتنـــــا، أجاب:

ــ احذري، فربما كنت يهوذا الاسخريوطي، ولست بطرس الرسول.

وقتها تابعت المزاح معه:

ـــ معقول أنك تستطيع أن تنكرني.. حتى بعد صياح الديك ألف ألف مرة يا يوسف؟!

يا إلهي، أفكر الآن. كم يصدق الناس وهم يمزحون

أتذكر أيضا أنه قال لي اكثر من مرة بأنه يشعر أن حبنا يموت، ومرة أجبته بترق:

ـــ ليمت.. لست آسفة على شيء

أرى الآن أي كمد، وأي حزن كانا في عينيه، وللمرة الوحيدة رأيت دمعة تترقرق، لكنه يكابرها، تناول سترته الجلدية السوداء وهو يقول:

ـــ أنت تقولين أنك لا تبالين بشيء ولكنك تكادين تموتين، ستقتلك كبرياؤك.. ستبكين دما.. سأذهب إلى المستشفى الآن.. لكن سأعود.. سأعود لأني لا أرتاح في أي مكان آخر.. هذا الحب سيموت، أنت وأنا نخنقه، نخنقه مثلما نخنق طفلا جميلا.

يومها أجبته، معيدة الحديث إلى أصل المشكلة ونهايتها:

ـــ أنت من أصر على إجهاض الجنين، لا أنا.

إني أتذكر، أتذكر آخر مرة زارني فيها بعد عيد رأس السنة، اتى ليهنئني بالعام الجديد، أتى بدل أن أذهب إليه كما كان يحدث في السنوات السابقة، وكان لي حوالي خمسة أشهر لم أره فيها، أتى ومعه صديق لا أعرفه، ربما أتى محتميا بصديقه حتى لا ننبش الماضي، حتى لا نحرك الجثة العفنة، حتى لا يتحول حديثنا إلى خصام.

في المساء دخلا، يوسف وصديقه، قال لي: تستقبليننا؟ كل عام وأنت بخير، قلت تفضلا، قال نشرب فنجان قهوة، وكان يظن بأني سأقدم نبيذا حسب عادتي في مثل هذه الأيام، قلت تفضلا، دخلت المطبخ، ثم خرجت، وسألت: كيف تحب القهوة يا دكتور يوسف، بسكر أم بدون؟ فأجاب يوسف: معقول أنك نسيتني إلى هذه الدرجة؟ معقول أنك نسيت النبيذ، معقول أنك نسيت كيف أشرب القهوة؟ قلت انتم ضيوف، والواجب سؤال الضيف عن قهوته، آسفة ليس عندي نبيذ، وهو يعرف أن النبيذ موجود. قال شكرا على لطفك يا رويدا. القهوة سكر قليل.. شكرا على لطفك يا آنسة رويدا. وخرجا بعد أن شربا القهوة مسرعين. كانت آخر مرة أراه فيها.

أتذكر أيضا أواخر مرات كلمني فيها بالهاتف، وكان ذلك قبل شهرين من فاجعة السيارة، أتذكر أنني أغلقت الهاتف بعد أن سمعته يقول «مرحبا» وظللت أسبوعا كاملا أؤنب نفسي لأني أغلقت الهاتف في وجه من يقول «مرحبا»، ثم ظل أسبوعا كاملا يحاول الاتصال وأنا أغلق الهاتف إلى أن جرى الحديث التالي على الهاتف:

ــ رويدا لماذا تغلقين الهاتف في وجهي؟

أجبت:

ــ وأنت لماذا تتصل بي؟

قال:

ـــ هذا أضعف الإيمان يا رويدا.. هل يزعجك اتصالي الهاتفي؟

أجبت: نعم

وأغلقت الهاتف في وجهه للمرة الأخيرة. وكانت المرة الأخيرة التي أسمع صوته فيها.

أتذكر أيضا بأنه سألني مرة بعد مخاصمة شديدة، وبعد كلمات قاسية وجهها لي ورددت عليه بمثلها:

ـــ رويدا.. أنت درست الفلسفة وعلم النفس، هل تستطيعين أن تقولي لماذا يتحول الحب إلى كره وعذاب، الحب الذي يفترض فيه أن يسعد الناس، لماذا يحولهم إلى عقارب تلدغ؟

يومها أجبته بترق:

ـــ اذهب واسأل نجوى حمدان

أجاب بهدوء:

ـــ إنني أسألك أنت يا رويدا

قلت:

ـــ لا معنى لسؤالك طالما أنك صرت تخطئ باسمي وتناديني أحيانا «نجوى» بدل «رويدا»، في حديثنا هذا أخطأت مرتين باسمي من شدة انفعالك، وأنا أراقبك، وأتجاهل خطأك.

قال:

ـــ رويدا.. إنني أقضي مع نجوى أكثر من عشر ساعات يوميا.. أقضي معها كل وقت العمل، من الطبيعي أن أخطئ.. افهميني، إني اتلفظ باسمها كل لحظة في النهار

ــ أجبت:

ــ إنك تقضي معها أوقاتا خارج العمل أيضا.. تقضي معها أوقاتا إضافية.. أليس كذلك؟!

قال:

يكفي ضغطها علي.. ساعديني وتصرفي بنبل وتسـامح.. تصرفي بوعي.

قلت:

ــ لم تترك مجالا لذلك. أنت تريد عشـيقتين في سـرك، واحدة للعاطفة النقية، مثل زوجة طيبـة في البيـت، وواحـدة للشيراتون وبلودان والبحر.. ربما لمشاريعك الطبية التجارية.

قال:

ــ أنت تهينيني يا رويدا

قلت:

ــ أنا أتكلم الحقيقة، وأنت الذي يهينني بوجودك معـي .. أنت تهينني بكلامك عن النبل والتسامح والوعي، كأنني مراهقة.. صرت أعرفك

قال:

ــ أرجوك حافظي على ما تبقى.. نجوى ــ عفوا رويدا ــ في شيء طيب حافظي عليه

قلت:

أنا اسمي رويدا من فضلك.. لم يبق شيء أحافظ عليه.. لست مربية اطفال، حافظ على قلبك الطيب، على أشيائك الطيبة لغيري.

قال: يا إلهي ما أقساك

الآن أتذكر: مرة أخطأت وناديت مازن بيوسف، ومازن أخطأ ودعاني نجوى

الآن أفكر:

يا إلهي ما أقسانا جميعا، لكن أكان من الضروري أن يموت أربعة أشخاص، ويعطب خامس حتى أكتشف كل هذه القساوة، كل هذا العنف الدفين في النفس، حتى أكتشف هذه الحقيقة؟! أكان من الضروري أن تحدث فاجعة السيارة حتى أتذكر كل تلك المشاحنات والخلافات؟ كل ذلك الحب؟! حتى أعرف أن القليل من الحكمة كان يكفي لضبط النفس، فالقليل من التسامح والنبل وضبط النفس والمخيلة، كان يكفي لإنقاذ كل شيء، أكان يجب أن يحدث ما حدث حتى أعرف أن الحياة أثمن من أن نضيعها في الخصام والتفاهات والمهاترات، أم أن طبيعة الحب، طبيعة الحياة هكذا.. ربما ..... ربما.. لا أعرف.

الآن أتذكر، أتذكر أنني قلت مرة ليوسف:

ـ يوسف لماذا نعذب بعضنا هكذا؟ لماذا يتحول الحب إلى ألم، لماذا نحن قساة تجاه من نحب؟

يومها أجابني:

ـ أنت السبب، حماقتك هي السبب

قلت له:

ـــ أنا لا أسألك عن علاقتنا تحديدا.. أسألك عن هذه الحياة.

قال:

ـــ أنا لا أحب التفلسف.. قلت لك أنت السبب

قلت:

ـــ اسمع يا يوسف،أعرف أنني أنا التي أطلقت الرصاصة الأخيرة على علاقتنا.. أطلقت رصاصة الرحمة، ولست نادمة، أنا نادمة على شيء واحد هو أنني لم أعجل بإطلاق هذه الرصاصة، لكنك أنت من بدأ، أنت من أطلق الدفعة الأولى من الطلقات.. لكن طالما وصفتني بالحمقاء فأقول لك أنت السبب.. هشاشتك، مطامعك، أوهامك، انتهازيتك، روحك الملوثة يا دكتور يوسف وفكرك الأعوج، هو السبب حتى قبل نجوى حمدان وبعدها، نجوى حمدان ضحيتك مثلي.. نجوى حمدان كشفتك، نجوى حمدان مرآتك الصادقة، أرتك، أرتني ضعفك وهشاشتك يا دكتور

قال: اتركي نجوى حمدان جانبا.. هي لا تعرف حتى اسمك.

أجبت:

ـــ بالطبع لا تعرف اسمي.. فأنا عشيقتك السرية السابقة.. أنا صاحبتك.. أليس كذلك؟؟ أسفي عليك يا يوسف، إنني أشفق عليك، وأرثي لك.. أنت تهين نفسك ولا تهينني أنا

قال:

أنت زوجتي أمام ربي وضميري

قلت:

ـــ لهذا أصررت على أن أجهض...!!! أنت لا رب لـــك ولا ضمير. تريدني أن أكون زوجتك المنسية في البيت، ســـبق أن قلت لك هذا أكثر من مرة: لن أكون إمرأة مهجورة. لن أكـــون إمرأة منسية، لن أكون زوجة ثانية. لن أكون عشيقة سرية

قال ـــ عوفتني ديني وربي وضميري.

الآن أفكر: هل كنت أشفق عليه، أم هو الذي كان يشـــفق علي؟! أم أنني كنت أشفق على نفسي أنا، أشفق علـــى رويـــدا الرفاعي التي ضاع منها كل شيء؟!

يا إلهي كم انحططنا بأنفسنا!!! كم دسنا مقدسات بعضنـــا بعضا!!! كم انحططنا بأسلوب حديثنا!!! يا إلهي أكان يجـــب أن يحدث كل ذلك، أكان يجب أن أتذكر ذلك لأعود وأحياه مـــن جديد وكأنه يحدث الآن؟ أما كان يكفي أن نختلف ونفترق عـــن بعضنا بصمت، أن نحافظ على كبريائنا، على ذكرياتنا الحلوة الـــتي ما عدت أذكر منها شيئا؟! لا أذكر إلا أوقات الخصام والمـــهاترة. لماذا لم نحافظ على مرحلة هي أجمل سنوات العمر، يوسف كـــان في الخامسة والثلاثين، وأنا كنت في الخامسة والعشرين، عشـــر سنوات هي أجمل سنوات العمـــر وأفضلـــها، لمـــاذا دســـناها واحتقرناها هكذا بهذه الطريقة الفظة، لماذا قضينا على كل ذكرى طيبة، أم أن مصير الجميل ألا يستمر، يموت كما تموت الـــورود والبلابل.. يموت كما يموت البشر...

يبدو أن حقيقة الإنسان تظهر في أوقات الخلاف والغضب..

يا إلهي، ما أقسى هذه الحياة، يا إلهي لماذا سارت الأمـور في هذا الطريق؟! ما عدت قادرة على متابعة الذكريات.. ما عـدت قادرة على متابعة التخيلات.. ما عدت قادرة على متابعة تصـور جسدك يا يوسف ملقى في صندوق شاحنة صغـيرة، جسـدك وجسد ديمة وأم نجوى وأبيها، بل ونجوى، وكأنكم جثث آتية من المسلخ .. يا إلهي ارحم. يا رب ارحم.. فقط ارحم.. ارحـم ولا أريد أي شيء، آخر يا رب ارحم.. وإذا لم ترحم فنحـن لـن نرحم.. يا رب ارحم.. يا رب ارحم، وإذا لم ترحمنا فلن نرحـم بعضنا بعضا .. يا رب ارحم .. فقط ارحم.

الآن أفكر:

ماذا لو عرفني يوسف على نجوى حمدان، وأصبحنا أصدقاء؟ هل كنت سأذهب معهم إلى طرطوس، بدل من كنت سـأذهب؟ وبدل من كنت سأموت، بدل ديمة أم بدل أم نجـوى أو بـدل أبيها؟ هل كنت سأموت في الحادث، في السيارة، هـل كنـت سألقى في صندوق الشاحنة، ثم أدفن في ادلب، أعود إلى بلـدتي التي هربت منها، لكن ميتة.. يا رب ارحم

إني أتذكر:

الآن أتذكر:

مرة وبعد مهاترة عنيفة بيي وبين يوسف في المراحل الأخيرة من علاقتنا، صمت لحظة ثم قال:

ـــ لي صديق من أيام الجامعة، وكان يدرس في قسم اللغة العربية، كتب بعد أن تخرج من الجامعة كتابا بعنوان «انكسار الأحلام» وأهداني إياه منذ عامين. لم أقرأ الكتاب، وليس لدي وقت لقراءته، لكن عنوانه أعجبني، سأهديك إياه.

قلت: ماذا تقصد؟

قال: أظنك فهمت.. تذكرين أنك قلت لي أكثر من مرة أن الحياة هي غابة رموز ودلالات، غابة احتمالات، نقلا عن مازن عبد الحميد الذي صرت ترددين أقواله. سأتكلم حسب رموزك.. لا. سأتكلم كما أشعر.. أنت يا رويدا الرفاعي كسرت أحلامي.

صمت و لم أجب، أذكر الآن تماما أن عدة أجوبة تدافعت إلى لساني واحترت أيها أختار، فأرتج علي، والآن ها أنذا أقولها لك يا يوسف، ها أنذا أجيبك؛ ها أنذا أكتب أجوبتي، أرتبها حتى تفهم، وحتى أفهم:

١ ـــ نجوى حمدان هي التي كسرت أحلامك، مستشفاها وبيوتها وسياراتها ونمط حياتها هو ما كسر أحلامك.

٢ ـــ كلانا كسر حلم الآخر.

٣ ـــ نجوى حمدان كسرت أحلامك وأحلامي.

والآن أضيف:

٤ ـــ وكسرت أحلامها أيضا، وأحلام أبويها. وأحلام مازن عبد الحميد. بل وأحلام طفليها.

الآن أفكر:

لماذا لدي رغبة داخلية في إلقاء تبعة كل شيء على نجوى حمدان؟ ما الخطأ في تصرفها؟ تزوجت وأخفقت. أحبت مازن عبد الحميد لكنهما لم يتفاهما، ثم أتى الشخص المناسب: طبيب ماهر ووسيم، زميل، عازب، طموح في عمر مناسب، ومصادفة كان هو يوسف، فما الخطأ أن تضع عينها بل ويدها عليه، ربما لو كنت مكانها لفعلت مثلها، أبوها بنى لها مستشفى ليبيض أمواله كما قال مازن عبد الحميد، وبإمكان الدكتور يوسف عبد النور أن يكون مديرا مناسبا، شريكا وزوجا لابنة وحيدة من أب غني، ثم يبدو أن الدكتور يوسف نفسه يرغب في ذلك، صحيح أنه قال مرة أن لديه صاحبة، ولكنها مجرد صاحبة ـــ أنا أتكلم بلسان نجوى ـــ وبالإمكان الاستغناء عنها، ثم إذا كان يحبها حقا فلا أحد يستطيع إجباره على تركها.. لا أنا نجوى حمدان ولا غيري يستطيع إجبار حبيب على ترك حبيبته، إذا كان سيتركها في سبيلي، أو في سبيل المستشفى، أو السيارة، أو مقابل كل ذلك فهذا شأنه، تلك رغبته، فهو يبدو مستمتعا بنمط حياتي. حتى اسم صاحبته لم يقله لي، و لم يعرفني عليها.

الآن أفكر:

ألا يمكن أن تكون نجوى حمدان قد فكرت على هذا النحو، أو ما على نحو قريب منه؟ أليس معها بعض الحق يا ترى، لكن أكان يجب أن يموت أربعة أشخاص ويعطب خامس، حتى أستطيع التفكير بتلك الطريقة التي أراها الآن عاقلة وحكيمة؟!

الآن أفكر بيوسف:

ماذا لو أوصد يوسف الباب في وجه نجوى حمدان، ماذا لو قدمني إليها كصديقته، أو خطيبته، أو حتى زوجته، أما كان يقول لي دائماً: أنت زوجتي أمام ربي وضميري. هل كانت نجوى ستستمر في إغوائها له؟ هل كانت ستطرده من المستشفى؟! يوسف هو المسؤول، يوسف هو الذي وضع قطاره على خط نجوى حمدان الحديدي. لكن مالي أسحب المسؤولية عن عاتق نجوى وألقيها على عاتق يوسف؟! يبدو أنني بحاجة لمشجب أعلق عليه أخطائي. لو تصرفت بحكمة أكثر، لو وضعت قطاري أنا على خط الحديد الصحيح، أما كان بالإمكان لملمة الموضوع والاستمرار في علاقتنا؟!

هل كانت ستحدث آنذاك فاجعة السيارة، ألست مسؤولة عما حدث يا ترى؟

ألست مسؤولة عما حدث يا ترى؟

ألست مشاركة فيما حدث؟!

الآن أفكر، أفكر واكتب كما طلبت مني يا مازن عبد الحميد؛ أفكر على الشكل التالي:

ربما كان يوسف قد بدأ يشعر بالنفور مني نتيجة ما رآه من لا مبالاتي، وانفجاراتي بين حين وآخر، ربما وجد الأمان عند نجوى التي كان يقضي معها أكثر من عشر ساعات يومياً، ويأتي إلي في الأسبوع مرة أو اثنتين، يأتي إلى في وقت فراغه. من الطبيعي أن تنشأ عاطفة بينهما نتيجة لقائهما اليومي. من الطبيعي

أن يزداد ابتعاداً عني كلما ازداد اقتراباً من نجوى حمـــدان. مـــن الطبيعي أن تتغير العواطف، أن تنتقل، أن تنمو وتذبـــل وتمـــوت وتتحول.. من الطبيعي هذا. لكن هل أنا مستعدة للاعتراف هـذه الحقائق في غير هذه اللحظة... هل أنا مستعدة للتفكير والسـلوك وفق هذه الحقائق.. هل يستطيع الإنسان أن يلائم بـــين عقلـه وعاطفته، أشك بذلك، بل وأشك بضرورة أو جـــدوى ذلـك، فعندها سيتحول الإنسان إلى آلة صماء تعمل حسب التعليمـات، لا ليس مطلوباً، ولا مرغوباً أن يحدث هذا، لكن أكان يجـب أن تحدث فاجعة السيارة حتى أتعلم التفكير بهذه الطريقة، حتى أتعلـم كيف أفهم نفسي والأحداث والحياة.. ربما إني أتذكر:

أتذكر يوم كنا في مطعم السنابل، يوسف وأنا، أتذكر انـــه قال لي:

ــ رويدا.. أنت ترينني على حافة الهاوية، وبدل أن تجذبيني نحوك، تدفعينني إلى عمقها..

أتذكر أني وقتها أجبته، مع أني كنت أقول في نفسي «إنــه يلقي اللوم عليَّ ليمشي في طريق نجوى حمدان».

ــ وأنت تفعل الشيء نفسه

وقتها أجاب متسائلاً:

ــ لماذا ندفع بعضنا نحو الهاوية، بدل أن ننقذ بعضنا؟

كان جوابي جاهزا: إنها نجوى حمدان ومستشفاها، لكـني لم أقله له، بل قلت:

ـــ يبدو أننا لن نتابع.. لن نعيش معاً.. سنمشـــي كـــل في طريقه.. لو كانت هناك إمكانية لنعيش معاً، لتزوجنا منذ زمـــن ولما بقينا نراوح مكاننا كل هذه السنوات، ولقد راوحنـــا حـــتى تعفنت علاقتنا وجف نسغها، وأنت تتعلل بوضعـــك الطـــائفي وتخوفك على سمعتك وسمعة أهلك، كأنني عيب تداريه.. أنت يـــا يوسف عبد النور، وعلى الرغم من كلامك ما تـــزال متخلفـــاً وطائفياً في أعماقك.. لست حاسماً.. ولهذا أجلـــت الموضـــوع، تركته للزمن حتى يفسد. أنا اعتبرتك كل هذه السنوات زوجـــي أمام ربي وضميري. أنت كنت شبه مقيم معي في بيتي، وكـــانت لدي الشجاعة لأفعل هذا أمام الناس.

الآن أفكر:

هل حقاً يكون الإخفاق مصير كل علاقة يتطاول بها الزمـــن كما قال مازن عبد الحميد؟

أتذكر مازن عبد الحميد، وأتذكر كيف انفصل عن ديمـــة كما حكى لي:

قال مازن:

ذات يوم دعتني ديمة على العشاء في مطعم الجندول وبعـــد العشاء قالت:

ـــ اسمع يا مازن، أعرفك جيداً، أعرف أنك تحبـــني، وأنـــا أحبك، ولكنني أعرفك جيداً، وأعرف أن المرأة هي الاهتمام الثاني في حياتك، هي الزوجة الثانية، حبك الأول هو الكتابة والكتـــب. أنا لا أريد أن أكون في المرتبة الثانية مع أي شخص في العـــالم،

حتى ولو كان مازن عبد الحميد، أعرفك وأعرف نفسي.. أريد أن أكون الأولى في حياة رجلي، وأنت لا تستطيع ذلك. قررت أن نفترق، لا تتصل بي بعد اليوم، لا تحاول أن نلتقي، سأحبك، لا تطرح علي لعبة أن تستمر الصداقة، أعرف إلى أي مستنقع آسن تقود هذه اللعبة بين العشاق السابقين.. هذا قراري النهائي والحاسم. وداعاً.

أضاف مازن:

لم أقتنع بأسبابها، أعتقد أن طائفية يوسف العميقة أثرت فيها دون أن تشعر.

الآن أفكر: ماذا لو فعلت مثل ديمة، ماذا لو كنت قوية مثلها، لكن الوعي يأتي دائماً متأخراً على يبدو، يأتي بعد أن ينتهي كل شيء.

الآن أتذكر:

مازن قال لي مرة، ومنذ فترة قريبة:

الفرق بيني وبين يوسف أن يوسف عدمي حياتي، وأنا عدمي فلسفي.. لا أعرف معنى عدمي حياتي هذه، سأسأله عن معناها.

الآن أفكر بيوسف: سأنسى كل شيء يا يوسف، ولكني لن أنسى أبد الدهر أنك حطمت صفائي وبراءتي وثقتي بالحياة والبشر، أنت يا يوسف زرعت الشك بالناس في نفسي، حطمت حلمي بحب سعيد وبيت صغير وطفل .. حطمت حلمي بأن

أكون زوجة محبوبة ومخلصة. زوجة تعمل في النهار مع الناس وتتشوق للعودة إلى البيت الهادئ، إلى الزوج المحب.

الآن أتذكر:

الآن أفكر:

لماذا تصيبك وحدك المصادفة يا يوسف؟! مصادفة التعرف على نجوى ومصادفة الحادث، وهل لهذه المصادفات من معنى أو دلالة؟ هل هو خطأ سحري يكشف الحقيقة المحتجبة؟ وهل نكون نحن البشر، مجرد مظاهر للطبيعة، كالشمس كالشجر، كالريح، كالمطر؟

الآن أتذكر، وأكتب، أكتب ذكرياتي، لم أفكر ذات يوم في أن أصبح كاتبة،، أو روائية، أنا مجرد صحفية، وأنا قانعة بذلك، إني أكتب الآن لأرتب أفكاري وأجلوها لنفسي؛ لكن قصة يوسف ما تزال غصة في نفسي، ربما لأنها كشفت هشاشتي وضعفي، كل ما أحببتك من أجله يا يوسف، كله افتقدته فيك فيما بعد، وافتقدته في نفسي.

تذكري واكتبي. قال مازن عبد الحميد

ها أنذا أتذكر، وأكتب، تذكرت، وغصت وكتبت كما قلت لي يا مازن، جلوت نفسي لنفسي، غصت في ذاكرتي، غصت في وعيي ولا وعيي، وتجرأت على مكاشفة نفسي كما

نصحتني يا مازن، لم أبكِ، و لم أضحك، عند الواقعة العظيمة، بل فكرت كما طلب سبينوزا، ثم اليوم قرأت كل ما كتبت خـــلال الأسبوع الماضي فِي هذا الفندق الذي نصحتني بالمجيء إليه، و كان فندقاً جميلاً ومناسباً. ها قد قرأت اليوم ما كتبت، فازداد جــهلي بنفسي، وبما حدث، لكنني أردد الآن، وبصوت مسموع:

ــ يا رب ارحم

أقول يا رب ارحم، وأتعجب كيف جرؤت على كتابة كل ما كتبت، كيف جرؤت على عيش كل ما حدث مرة أخــرى.. سأمزق كل هذه الذكريات وأنساها.. سأمزقها وسأنساها، كما مزقت أجمل سنوات عمري معك ونسيتها يايوسف. لكن قبــل ذلك تعال يا مازن، تعال واقرأها. اقرأ كل ما كتبت وكل مــــا تذكرت، أنت قلت بأنك ستكتب رواية عن نجوى حمدان عندما تتوضح النهاية، عندما تكتمل الرواية، وها قد اكتملت الروايــــة وهل من نهاية، من كمال لأي رواية، أكبر وأصدق مــــن نهايــة الموت وكماله، من فاجعة موت أربعة أشخاص، لقد وهبك القدر يا مازن نهاية مفاجئة، درامية، خيالية منطقية وواقعية، لروايتــك، تعال يا مازن تعال واكتب روايتك ، روايتي، روايــــة يوســـف ونجوى وديمة، فالرواية قد اكتملت بالموت، تعال إلى فندقك الذي اعتدت الاعتزال والكتابة فيه، تعال لتكتب الروايــــة، فالروايــة صارت جاهزة عبر مصادفة النهاية ومفاجأتها تعال يا مازن، تعال هات مخيلتك وتعال، تعال لتكتب، تعال واكتب.. تعال لنقـــضِ معاً بقية العطلة ، بقية الرواية في هذه الطبيعة الجبلية الجميلة، تعال

نسمع فيروز، نسمع صوت الريح في الشجر، تعال نقضِ بقية الوقت معاً، تعال نقضِ بقية العمر معاً، تعال نسند الأنقاض بالأنقاض، كما كنت تردد من شعر خليل حاوي، تعال يا مازن، ساعدني، ساعد نفسك في فهم ما حدث، تعال سأعطيك كل هذه الأوراق، كل ما كتبت، لتكتب روايتك، تعال لتساعدني وتساعد نفسك وربما نجوى حمدان الطريحة في فراشها إلى الأبد، تعال لتنظم أفكارك وأفكاري، ذكرياتك وذكرياتي، تعال غص في أعماقي وأعماقك، تعال غص في جسدي المتعب، اسندني، تعال، تعال وساعدني على فهم لماذا يموت أربعة أشخاص ويعطب خامس في حادث سيارة فاجع. أنا كتبت الأمور كما عشتها، كما فهمتها، كما تذكرتها، أنا كتبت وجهة نظري، وأتمنى لو أستطيع أن أعرف وجهة نظر نجوى حمدان وديمة ويوسف عبد النور، بل وأم نجوى وابيها، أتمنى أن أعرف وجهة نظرك أنت.. تعال يا مازن، هات مخيلتك وتعال.. تعال وساعدني، كإنسان أولاً، كروائي ثانياً، هات مخيلتك وتعال، فأنا مؤمنة بأن مخيلتك الروائية تستطيع أن تفهم الأحداث، أن تفسر فاجعة السيارة، بأفضل من وقائعي الصحفية، من ذاكرتي المتعبة ، ذاكرتي التي أتمنى أن أنساها، أتمنى أن أفقدها.

تعال يا مازن تعال. هات مخيلتك وتعال، هات مشروع روايتك وتعال، تعال لنفهم ما حدث وما يحدث وما سيحدث، تعال لننسج رواية، حياة.. تعال.. هات مخيلتك وتعال.. تعال.. تعال، فالمخيلة أكثر صدقاً من الواقع، والحب أصدق من الموت،

تعال لا لنبكي، ولا لنضحك، تعال لنفهم، لنحب بعضنا.. تعـال لنعيش معاً، تعال هات مخيلتك.. وتعال..

تعال...

تعال لتكتب الرواية.. تعال.. تعال واكتب، اكتب الروايـة، تعال واكتب رواية تليق بالفاجعة، رواية تليق بالحب، رواية تليـق بالموت، تعال واكتب.. اكتب الرواية، اكتب الرواية، اكتبها، فأنا عاجزة عن كتابتها.

١٨/١٢/١٩٩٨

صدر للكاتب

- روايات:

هكذا.. كالنهر - ١٩٨٦
الأشجار الصغيرة - ١٩٩٩
أجمل السنوات - ١٩٩٩

- قصص:

الأزمنة الحديثة - ١٩٧٤
جيران البحر -١٩٧٦
النخلة المضيئة - ١٩٧٨
المدن الساحلية - ١٩٧٩
بلاد كالزيتون - ١٩٨٧
ثلاثة فناجين قهوة ١٩٩٩

- نقد:

المغامرة المعقدة ١٩٧٦
السهم والدائرة ١٩٧٩
الرواية والواقع ١٩٨١
انكسار الأحلام ١٩٨٧
تكوين الرواية العربية ١٩٩٠
الرواية واليوتوبيا ١٩٩٥

- دراسات فكرية:

مسائل راهنة - ١٩٨٦
الثقافة- السياسة- السلطة ١٩٨٩
المجتمع المدني والعلمنة - ١٩٩٤

أجمل السنوات